خيرى شلبى

مؤرخو مصر الإسلامية



اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

مؤرخو مصر الإسلامية

الغلاف للفنان خلف طايع

خيــرى شلبـى

مؤرخـو مصر الإسلاميـة

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

الطبعة الأولى ١٩٩٨

بيــان بالـهوية

أعتقد أنه لا فضل لى فى هذا الكتــاب. بـل إننـى وقفـت أمـام موضوعه موقف التلميذ الصغير من موضوع شـديد الضخامـة. ولكننـى كنت ومازلت من أشد الناس افتتانًا بعلم التاريخ الذى لم أدرسه في معهد أو جامعة فظل بالنسبة لى مادة روائية غنيــة ساحرة. ومنـذ وقـت مبكـر جدًا أتيح لى أن أقرأ فى مكتبة ابن عمى الأزهرى بعض المصادر التاريخيـة المهمة فى طبعات عتيقة صفراء كان من بينها مقدمة ابن خلدون وخطـط المقريزى؛ فوقعت أسيرًا لكتاب الخطط الذى أرضعنى حب مدينة القاهرة الزاهرة الساحرة، ثم حب مصر كلها أرضًا وشعبًا وتاريخًـا وأبنيـة. فمـا أن كبرت وشرعت فى تكويـن مكتبتى الخاصـة حتى أصبحـت المكتبـة التاريخية أهم رف فيها. بتوفيق من الله وبفضل سـور الأزبكيـة ومكتبـة الشيخ علـى خربـوش بالجمـاميز -المتخصصــة فـى بيـع الكتـب القديمـة- حوت مكتبتى الخاصـة جميـع مصـادر التـاريخ الإسلامى، مـن القرطبـى

والطبرى وابن مسعود إلى ابن خلدون والمقريزى وابن تغرى بردى وابن إياس والقلقشندى والجبرتى والسيوطى وغيرهم- (الترتيب غير مقصود)- ناهيك عن الكتب الحديثة. أدمنت القراءة فيها بشغف كبير، واستلهمت من متونها وهوامشها كثيرًا من الأفكار القصصية والروائية والموضوعات الصحفية. وجاء علىَّ حين من الدهر أصابتنى فيه لوثة الولع بمؤرخى مصر الإسلامية على وجه التحديد، حتى باتت أسماؤهم تتردد باستمرار على لسانى فى أحاديثى اليومية: بحميمية وافتتان. كنت أقرأ لهم دون أن أقرأ عنهم؛ ربما لنقص المكتوب عنهم خارج نطاق الدراسات الأكاديمية؛ وربما لأن القراءة لهم قد استغرقتنى بما فيها من سحر وما تقدمه من معلومات أشبه بالأساطير المثيرة.

ومن حسن الحظ أن الاهتمام بأولئك المؤرخين قد بدأ يخرج من أسوار المدرجات الأكاديمية فى ربع القرن الأخير ليدخل فى نسيج الحياة الثقافية العامة؛ حيث نشط المجلس الأعلى للفنون والآداب -المجلس الأعلى للثقافة حاليًا- بالاشتراك مع الجمعية التاريخية المصرية العتيدة فى إقامة سلسلة من الندوات والحلقات الدراسية شارك فيها لفيف كبير من خيرة الأساتذة والدارسين والباحثين المتخصصين؛ فأصبح هناك حلقات وندوات عن ابن عبد الحكم والسيوطى والقلقشندى والمقريزى وابن إياس والجبرتى؛ كانت الهيئة المصرية العامة للكتاب تقوم بطبعها وتوزيعها على منافذها. فبادرتُ باقتنائها، فإذا بى أجد فيها ما كنت أطلب من

معلومات ودراسات وأبحاث تعين القارئ على فهم أولئك المؤرخين واستيعاب أعمالهم وحقيقة الدور العظيم الذى لعبوه كلٌ على حدة.

وذات يوم سألنى أحد أبنائى عن ابن عبد الحكم الذى تردد اسمه كثيرًا فى كتاباتى وأحاديثى. فأجبته بمعلومات مبتسرة سريعة. ثم أصبحت أفاجأ بين يوم وآخر بمن يلتقينى من قرائى، خاصة فى روايتى التاريخية المبكرة "رحلات الطرشجى الحلوجى" وروايتى القريبة "بطن البقرة" فيطلب منى إيضاحات عن ابن إياس والمقريزى والقلقشندى وجلال الدين السيوطى. فكنت أحيلهم على كتب هؤلاء المؤرخين الذين أخذت عنهم، ثم أكتشف فى الحال أن مثل هذه الكتب ليست متوفرة، والحصول عليها ليس سهلاً على الإطلاق، سيما وأن بعض هذه الكتب الموسوعية قد يصل طوله إلى أكثر من عشرين مجلدًا، طبعت فى الغالب طبعة واحدة محدودة ثم اختفت. فأصبحت أحيل من يسألنى على الحلقات الدراسية والندوات التى تم نشرها فى كتب، لكتنى سرعان ما يتضح لى أن قراءة مثل هذه الدراسات الأكاديمية الصرفة قد يكون صعبًا على عموم القراء البسطاء الذين ربما يضيقون ذرعًا بما فيها من تحليلات لقضايا تاريخية جافة.

ومن هنا نبعت الحاجة إلى مثل هذا الكتيب البسيط، الموجَّه للقارئ البسيط، بهدف التعريف بأولئك المؤرخين، التعريف بهم لا أزيد ولا أقل. فأما القارئ البسيط فله أن يكتفى بهذا التعريف إن أراد.

وأما القارئ المثقف فله بالطبع أن يرجع إلى المصادر الأصلية والكتب الموضوعة عنها؛ بل إنه قد لا يكون محتاجًا لمثل هذا الكتيب البسيط.

أما وقد رأيت أن أتطوع بمثل هذا التعريف الذى أوجهه لقرائى البسطاء فقد كان لابد لى من الاعتماد على فضل أهل العلم المتخصصين، لأنتخب من فيضهم ما أراه ضروريًا فى هذا المقام. فلم يكن لى ثمة من فضل فى كلمة واحدة مما ورد فى هذه الفصول اللهم إلا محاولة وضع المعلومات فى سياق مبسط يستسيغه القارئ العجلان غير المتخصص. وكانت الأمانة تقتضى أن أورد ثبتًا بكل المصادر التى أخذت عنها؛ لكننى لم أشأ استعارة الشكل الأكاديمى الذى يعتمد علامات التنصيص والهوامش، والذى قد ينفر منه القارئ العام، سيما وأننى لا أريد الإيهام بأننى أقدم عملاً علميًا بأى مستوى .. فاكتفيت بذكر المصادر داخل السياق كجزء لا يتجزأ منه، تسهيلاً للقارئ على الاستيعاب من ناحية، وإشارة إلى ما يمكن له الرجوع إليه من ناحية أخرى. وفى هذه الحدود المحدودة أتعشم أن أكون قد أفدت، والله ولى التوفيق.

خيرى شلبى

الفصل الأول

جلال الدين السيوطي

أول مؤرخ وطني من منظور مصري

كان القرن التاسع الهجرى -الخامس عشر الميلادى- عصرًا ذهبيًا بالنسبة للثقافة العربية فى مصر فى العصور الوسطى الإسلامية.. إنه عصر الموسوعات الكبيرة الضخمة، والعلماء الضخام، وهو العصر الذى انتعشت فيه كافة العلوم الطبيعية والرياضية والأدبية واللغوية، وقامت فيه مدرسة التاريخ المصرى التى ضمت كوكبة من العمالقة لم يشهد لهم التاريخ مثالاً فى أى عصر آخر. ومما لا شك فيه أن الإنتاج العلمى الغزير الذى أفرزته الحضارة العربية الإسلامية فى مصر فى القرن التاسع الهجرى هو البذرة التى احتضنها الغرب فى عصر الأندلس ليقيم عليها شجرة

حضارته وأساس عصر النهضة الأوربى.

دمر المغول بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وكان زحفهم بربريًا يأكل الأخضر واليابس، ومن بين ما دمروه ذخائر المكتبات من مخفوطات نادرة وضعها علماء العربية فى الأجيال الأولى.

وقتل المغول -بقيادة هولاكو- المستعصم آخر خليفة عباسى. فأسرع بيبرس -مؤسس دولة المماليك، باحتضان عم الخليفة المستنصر با لله -الذى هرب ولجأ إلى مصر، وأعلن بيبرس خلافة المستنصر با لله فى عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م. ومن يومها ظلت الخلافة العباسية فى مصر حتى بداية العصر العثمانى، غير أن أمير المؤمنين كان مجرد أمير فحسب، يصف المقريزى وضعه بقوله: «حسبه أن يقال أراد أمير المؤمنين».

عقدة الرق كانت متأصلة فى نفوس المماليك، فهم جميعًا عبيد اشتراهم السلاطين من النخاسين أو حصلوا عليهم كهدايا. وبحكم نشأتهم فى مصر فى كنف السلاطين فقد تعلموا العربية وفنونها وحفظوا القرآن وعلوم الدين وتفقه بعضهم فى علوم كثيرة. وكانوا ينقسمون إلى قسمين: المماليك الأتراك ويسكنون حى الروضة، ويسمونهم **المماليك البحرية** نسبة إلى سكنهم على شاطئ النيل.. والمماليك الجراكسة وأصلهم من القوقاز ويسكنون أبراج

القلعة، ولهذا يسمونهم **المماليك البرجية.** ولفرط إحساسهم بالرق، وبأنهم دون مرتبة حكم شعب إسلامى، فإنهم حاولو. إسباغ الشرعية على وجودهم باحتضان الخليفة من ناحية، وإطلاق العنان للعلماء والمثقفين من ناحية أخرى، فأنشأوا المدارس وأنفقوا على طلابها عن سعة، وأغدقوا على العلماء والأساتذة من الهدايا والخلع وإجراء الأرزاق ماهيا لهم رغدًا من العيش، وأنشأوا الخنقاوات التى يؤمها رجال الصوفية ليجدوا فيها كل ما يحتاجونه من مأكل ومشرب وملبس ومنام. وكانت الدولة عسكرية وفى ظلها كانت مصر مرهوبة الجانب وأصبحت قبلة التجار من أنحاء العالم..

وفى ظل هذه الدولة ولد ونشأ **جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد جلال الدين الخضيرى الشافعى الشهير بجلال الدين السيوطى،** فى شهر رجب سنة ٨٤٩ هـ/أكتوبر سنة ١٤٤٥م، بمدينة القاهرة. وقد ترجم لنفسه فى كتابه الشهير "حسن المحاضرة" فأرجع نسبه إلى أسرة فارسية نزحت إلى مصر فى العصر الأيوبى واستقر بها المقام فى أسيوط، وكانت أسرة علم وفقه وقضاء فاشتهر منها رجال كثيرون. لكن الأب كمال الدين أبو بكر نزح إلى القاهرة قبل مولد ابنه جلال بأربع وعشرين سنة، حيث أقام فى جزيرة الروضة. على أن جلال لم يكد يبلغ الخامسة من عمره حتى

توفى أبوه، فتكفل به أحد أصدقاء أبيه وكان من رجال الصوفية، فرباه الرجل على خير وجه، فما أتم جلال الثامنة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن، ثم حفظ متون الفقه والنحو، ثم حضر مجالس العلم على كبار مشايخ عصره، فأخذ الفقه عن شيخ الإسلام "علم الدين البلقينى" والشيخ "المناوى"، ثم بلغ عدد الشيوخ الذين أخذ العلم عنهم مائة وخمسين شيخًا. وفى حوالى السابعة عشرة من عمره أخذ إجازة بتدريس اللغة العربية. ويقول "السخاوى" فى "الضوء اللامع" أن جلال الدين سافر وراء العلم والمشايخ إلى كثير من البلدان فى مصر وخارجها كالفيوم ودمياط والمحلة الكبرى والإسكندرية والشام والحجاز واليمن والمغرب، وكذلك الهند ومالى وبلاد التكرور. وأصبح يقوم بتدريس الفقه -خلفًا لوالده- فى الجامع الشيخونى، وبالإفتاء والحديث فى جامع ابن طولون، وتدريس الحديث فى الخانقاه الشيخونية. ثم تولى مشيخة التصوف بتجربة برقوق الناصرى، ومشيخة الخانقاه البيبرسية وهى أكبر بيوت الصوفية بالقاهرة، وكانت هذه آخر وظيفة شغلها، حيث تركها فى سنة٩٠٦هـ/١٥٠١م، ليمكث فى بيته بجزيرة الروضة فيغلق على نفسه أبوابه ويمتنع عن مخالطة الناس متفرغًا للبحث والتأليف، فبلغت عدة مصنفاته ستمائة كتاب، جمع فيها بين فن الكتابة التاريخية

والدراسات الأدبية والعلمية بجميع أنواعها، فكتب فى التاريخ وعلوم القرآن وأصول التفسير، وفى التفسير وفى أسباب النزول وفى الحديث وفى اللغة وفى الأنساب، بل إنه كتب فى كل شىء قد يخطر أو لا يخطر على البال. ويقول هو عن نفسه فى كتابه "تدريب الراوى" إنه قد رزق التبحر فى سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع، وقال: «إن العلوم التى اطلعت عليها لم يقف عليها أحد من مشايخى فضلاً عمن دونهم». وقال: «ودون هذه العلوم التى اطلعت عليها فى المعرفة، أصول الفقه والجدل والصرف، ودونهما الإنشاء والترسل والفرائض، ودونهما القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما الحساب فأعسر شىء على، وأبعده عن ذهنى». ويقول عن نفسه فى كتابه "الحاوى": «وقد كملت عندى آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة تصنيفًا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوصها وأجوبتها والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك». وطبقًا للحديث الشريف القائل بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، اعتقد السيوطى أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة، وكتب فى ذلك رسالة بعنوان "رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة"،

وقال فيها عن نفسه: «إنى ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالى لنفسه إنى المبعوث على هذه المائة التاسعة لانفرادى عليها بالتبحر فى أنواع العلوم».

لا غرو فقد لقبوه بابن الكتب من صغره لأنه نشأ بين الكتب، سواء مكتبة أبيه الزاخرة أو مكتبة المدرسة المحمودية التى كان يتردد عليها فى صغره والتى كانت من أنفس المكتبات فى القاهرة...وهكذا كانت معظم المدارس التى أنشأها سلاطين المماليك كمظهر يتفاخرون به. وقديمًا كانت ندرة الكتاب وارتفاع ثمنه تشحذ ذاكرة الطلاب وتحفزها على الاحتفاظ بالكتب التى تقرأها داخل الذاكرة، وليس غريبًا أن يحفظ الطالب ألفية ابن مالك مثلاً وهى ألف بيت من الشعر المصنوع لشرح قواعد اللغة العربية، وكانت القدرة على الحفظ تتفاوت من طالب لآخر حسب مستوى ذكائه وقدراته على الفهم والاستيعاب. ولقد تمكن جلال الدين السيوطى من حفظ مئات الكتب التى قرأها للأئمة الكبار فى مختلف العواصم الثقافية العربية آنذاك، وقد سهل عليه أن يرجع إليها فى تآليفه المختلفة، فحين يتعرض لموضوع تاريخى أو لمسألة فقهية أو لغوية أو تشريعية فإنه يلخص لك أولاً كل ما قاله السابقون فى شأنها، وربما لخص لك كتبًا كاملة أو رسائل كاملة، وبكل أمانة

ودقة يسند كل شيء إلى أصله الذى نقل عنه، حتى لو كان حرفا واحدًا. ومن هنا تظهر قيمة أخرى لكتابات السيوطى فضلاً عن قيمتها الموضوعية الذاتية، تلك هى أن هذه الكتابات التى كانت معاصرة فى وقتها احتفظت فى ثناياها بملخصات وافية ودقيقة لأمهات من كتب العرب دمرها المغول وامحت تمامًا من الوجود، ولولا أننا قرأناها من خلال كتابات السيوطى لما عرفنا عنها شيئًا على الإطلاق. ويقول المؤرخون العرب والمستشرقون إن ذاكرة جلال الدين احتفت بأشياء تستعصى على الحصر وإنه ذكر فى سياقاته العابرة أسماء كتب لم يسمع بها أحد على الإطلاق، بعضها لعلماء مشهورين وبعضها لناس مجهولين.

على أن السيوطى مع ذلك لم يسلم من سهام الحاقدين المعاصرين له مثل "السخاوى" الذى ترجم لمعاصريه ترجمات أدبية عظيمة للغاية ومع ذلك أطلق فيهم لسانه فجرحهم جميعًا وأسال دماءهم، وطعنهم فى شرفهم العلمى رغم اعترافه لهم بالفضل!.. اتهم "السخاوى" جلال الدين بأنه اختلس مؤلفات السابقين ونسبها إلى نفسه. وهذا الاتهام يعكس ضيق أفق "السخاوى" بالطبع رغم أنه أحد أعلام ثقافة ذلك العصر المبرزين. وكان جلال الدين قوى الشخصية شريف الطبع والطوية، عظيم الكبرياء، ولم يكن بالذى

يصبر على اتهام كهذا يسجله عليه التاريخ، وهو الـذى حرص منـذ وقت مبكر جدًا على وضع قائمة بالمراجع والمصادر التى أخـذ عنهـا المباحث ملحقة بآخر الكتـاب، وهـى ظـاهرة لم تكـن سـائدة عصـر ذاك... وهكذا لم يجـد السيوطى مفرًا مـن دفـع التهمـة عـن نفسـه بكتاب ألفه بعنوان "الكاوى على السخاوى". المدهش فى الأمـر أن ينزلق السـيوطى إلى مبادلـة "السـخاوى" سـبابًا بسـباب وهـو العـالم الجليل، على أننا نلتمس لجـلال الديـن السـيوطى عـذرًا، فقـد اتهمـه "السـخاوى" ليـس فقـط بـاختلاس الكتـب، بـل "بـالحمق والجنـون والهوس"! وكان طبيعيًا أن يتهمه السيوطى بأنه «حقير نقـير لا يبـاع في سوق العلم بقطمير». ولم يكتف السيوطى بهذه الرسالة وحدها فى رد عدوان "السخاوى" عليه، بل عاد فرد عليـه فـى كتـاب آخـر بعنوان "نظم العقبان فى أعيان الأعيان"، وعامله باستعلاء مبالغ فيه.

وإذا كان السـيوطى قـد أحصـى لنفسـه فـى كتابـه "حسـن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" ثلاثمائـة كتـاب، فـإن المستشـرقين قد أحصوا له ستمائة، أى أن الفترة القليلة التـى عاشـها بعـد كتـاب "حسن المحاضرة" ألف خلالها ثلاثمائة كتاب، صحيح أن بعضها قصير وقـد يصـل إلى صفحـة واحـدة، ولكـن لا ننسـى أن معظمهـا كـان موسوعات ضخمة من أجزاء متعددة. ويقولون إنه أثناء تأليفه لهـذه

الكتب كان يؤدى الفروض والواجبات الحياتية وفى نفس الوقت يتلقى الأسئلة من الناس للرد عليها والإفتاء فيها، فكانت تعرض له خلال ذلك بعض مسائل كبيرة يرى أنها أقوى وأشمل من أن تكون مجرد رد شفوى، فيحولها بعد بحث وتمحيص وتدقيق إلى ما يسميه بكل جرأة رسالة أو كتابًا حتى ولو كان محتواه نصف صفحة!... فمن موسوعاته القيمة ذات المجلدات خذ عندك: "الأشباه والنظائر"، "الاقتراح فى أصول النحو"، "الدر المنثور فى التفسير بالمأثور"، "لباب الألباب"، **"حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة"**، "المزهر فى علوم اللغة وأنواعها"، "بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة". وللسيوطى ثلاثة عشر كتابًا ترجم فيها لحياة طبقات مختلفة من الشخصيات الهامة ذات الوزن الثقيل دينيًا أو علميًا أو تاريخيًا: الأنبياء .. الصحابة.. المفسرون .. الحفاظ .. اللغويون .. النحاة .. الأصوليون.. الأولياء. ويورد الدكتور "عصام الدين عبد الرؤوف" مجموعة كتب طريفة جدًا للسيوطى، يصفها بأنها فى أغراض تافهة ما كان ينبغى للسيوطى أن يشغل وقته بها، وهذه هى الكتب الآتية: "الطروث فى فوائد البرغوث"، "بلوغ المآرب فى قتل العقارب"، "فصل الخطاب فى قتل الكلاب"، "الوديك فى فضل الديك"، "ما رواه السادة فى الاتكاء على الوسادة"، "المصابيح فى صلاة التراويح".

وإن المرء ليعجب فعلاً من أن يكون هذا العالم الجليل قد ترخص إلى قبول الخوض فى مثل هذه اللاموضوعات بالنسبة لعقله الضخم! على أن الدهشة قد تزول إذا علمنا أن السيوطى كان -على حد تعبير "الداودى" أحد تلاميذه- قد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفًا وتحريرًا، وكان مع ذلك يملى الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة.

وإذ تميز السيوطى كعالم بين علماء عصره بميزة الإبداع فى كل مساهماته التى ضرب بها فى كل اتجاه، بمعنى أنه لم يستهدف توصيل المعلومات فى حد ذاتها بل نراه يقدم أعمالاً إبداعية فوق ذلك، فأنت تقرأ -إلى جوار البحث العلمى أو التاريخى أو اللغوى أو الطبى- أدبًا عظيمًا وإسهامًا فعليًا فى تطوير اللغة العربية وإثرائها، وكذلك إسهامًا تربويًا فى إرساء قيم أخلاقية شريفة وسلوكيات إنسانية أكثر طهرًا.. كان معنيًا إلى كل ذلك بمسألة "أن يعرف الآخرون"، وهمه الكبير أن يوصل إليهم المعرفة والعلم بسهولة ويسر ووضوح دونما ترخص أو حذلقة.

أقول إذ تميز السيوطى بهذه الميزة كعالم يتكلم فى مسائل كبيرة، ومع ذلك يفهمها من لا يفك خطها إذا قرئت عليه فإنه يتميز فى نظرنا بميزة قومية خطيرة جدًا، تلك هى رؤيته للتاريخ من منظور

مصرى خالص. فصحيح أن السيوطى قد سبقه حشد من المؤرخين المصريين، «أشاد بعضهم بخصائص وطنه فى عبارات غامضة وعامة، برأفة مبعثرة، على حين تناول البعض الآخر هذه الخصائص، ولكن السيوطى استطاع أن يطل على التاريخ المصرى من النافذة المصرية، الروحية والمادية، المخلوقة له، أو المخلوق لها حتى أدرك رؤيته لهذا التاريخ، ثم عرضها فى دراسة غدت تكون عنصرًا من عناصر بناء الوعى المصرى ودعم أوتاده»... هكذا يقول الدكتور "إبراهيم أحمد العدوى" فى دراسة ضافية عن رؤية السيوطى للتاريخ المصرى. وفى كشفه عن أصالة التاريخ المصرى عند السيوطى يضيف الدكتور "العدوى" قائلاً: «..وأقدم السيوطى على معالجة تاريخ مصر القديم وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز بين بلاد العالم القديم، وما قدمه وطنه كذلك من خدمات جليلة للحضارة الإنسانية».

ويكشف الدكتور "العدوى" عن النزعة الوطنية الخالصة عند جلال الدين السيوطى فى اتساع رؤية السيوطى فى تدوين التاريخ المحض لوطنه، و«الكشف عما تحلى به من صفات عالية من حيث النظر الثاقب، والفطنة المتوقدة، والصبر الطويل من أجل جمع المعلومات، ثم عرضها بحيث يستفيد منها أبناء الوطن». ويقول

أيضًا: «إذا كشف هذا المؤرخ عن حقيقة لا يدرك اهميتها إلا كل راغب فى حماية وطنه، حريص على تدوين تاريخه المحلى بما يبصر المواطنين بالأخطار التى تكمن لهم، ويرشدهم عن طريق عرض النماذج التى يختارها إلى أُمثل السبل للنجاة والأمان».

ويقول كذلك: «لقد ركز السيوطى فى رؤيته للتاريخ المحلى المصرى على حقيقة هامة ظهرت منذ فجر مصر الإسلامية وهى: أن رخاء وطنه يتوقف على أمور ثلاثة هى: إدارة سليمة تعرف حاجات البلاد وأهلها، ومالية متوازنة تمثل الموارد الثابتة والمصروفات الحقيقية، ثم رقابة إدارية توجه العاملين إلى الطريق القويم. ومن ثم يمثل هذا الموضوع أساسًا متينًا للباحثين فى تاريخ الاقتصاد المصرى، يمكن أن يشيدوا عليه دراساتهم فى ثقة واطمئنان ... والظاهرة الكبرى التى تبادر القارئ لما كتبه السيوطى عن تلك الإدارة المبكرة فى مصر، هو سيادة الشعور بالطمأنينة عند الناس، وهو شرط لازم لإقبالهم على العمل والإنتاج. ثم إن الجميع شارك فى إدارة وطنه، وتحمل مسئوليات محددة، هدفها المحافظة على سلامة بلده وأهله».

وقد أحب السيوطى مصر وتغنى بها من خلال تاريخه، فهو يمتلك الخاصية الفريدة التى تتسم بها مصر على الدوام، وهى قدرتها على تمصير الوافدين إليها على شتى ألوانهم وإشباعهم بروح محبتها

والولاء لها. ومن منظلق هـذا الحب، صور امتزاج العرب أروع تصوير، ابتداءً من الدور الذى لعبه الجيل العربى الأول فى مصر، وجهود الصحابة الذين زاروا مصر وأحصاهم بالمئات: و"نظام الارتباع" الذى كان سائدًا فى عهد "عمرو بن العاص"، حيث تنتشر القبائل العربية المقيمة فى الفسطاط إلى جميع القرى المصرية للصيد والتدريب، فتمكث فيها طيلة الربيع وتعود محملة بالخير تعيش عليه بقية العام، وكانت السلطات الإسلامية تحدد للقبائل الأماكن التى تتجه إليها كل ربيع. وعن طريق هذا النظام على مدى سنوات طويلة، حدث الامتزاج شيئًا فشيئًا وانتشرت اللغة العربية واستقرت بعض القبائل العربية نهائيًا فى ريف مصر الخصيب. ويرصد السيوطى حب كل هاتيك الأجيال لوطنهم وحنينهم إليه إذا ابتعدوا عنه... فكأنما كان جلال الدين يؤرخ لمعنى الوطنية المصرية.

ولأن السيوطى قد برع فى التفسير والحديث واللغة والنحو والمعانى والبيان والبديع وأصول الفقه والجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب.. ولذلك فقد استفاد من كل ذلك فى كتابة التاريخ، وفى اختيار منهج الاجتهاد والإسناد كما عند علماء الحديث. وإيمان السيوطى بضرورة الاجتهاد دليل على أنه ذو فكر متقدم ينطلق من عقلية علمية موسوعية ناضجة. ونحن

نعرف أن الاجتهاد كان تقريبًا مسألة مرفوضة من تيارات فكرية كثيرة في ذلك الوقت. على أن السيوطى يسخر من كل هؤلاء سخرية مريرة، في كتاب يؤلفه خصيصًا لهذا الغرض بعنوان "كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض"، يؤكد فيه أن الاجتهاد فرض من فروض الكفاءات فى كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر. ويشير الدكتور "حسنين محمد ربيع" فى دراسة له عن منهج السيوطى فى كتابة التاريخ، إلى أن السيوطى أفرد فى كتابه هذا بابًا ذكر فيه من حث على الاجتهاد وأمر به وذم التقليد ونهى عنه، وأن السيوطى فى مقدمة كتابه الشهير "الإتقان فى علوم القرآن" نقل رأى الإمام "مجد الدين أبو السعادات بن الأثير" القائل بأن كل مبتدئ لشىء لم يسبق إليه ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه فإنه يكون قليلاً ثم يكثر وصغيرًا ثم يكبر .. وهذا يدل على أن السيوطى «حاول أن يكون رائدًا ومبتدعًا لأمور كثيرة لم يتقدم عليه أحد فيها، ولا ريب أن منهجه فى كتابة التاريخ كان إحداها». ويؤكد الدكتور "ربيع" أن السيوطى تأثر بشيخه وأستاذه "محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى"، المتوفى سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م، وكان السيوطى قد تتلمذ عليه لمدة أربع عشرة عامًا. وللكافيجى كتاب

فريد فى التاريخ عنوانه "المختصر المفيد فى علم التاريخ"، عرف فيه التاريخ بأنه «علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعيين ذلك وتوقيته»، وأن التاريخ «علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك، فثبت الاحتياج إليه كما ثبت الاحتياج إلى ما عداه من العلوم، وأنه واجب عنه على سبيل الكفاية كوجوب سائر العلوم». وقال الكافيجى أيضًا إن الشروط الواجب توافرها فى المؤرخ هى الشروط الواجب توافرها فى راوى الحديث، وحددها بأمور أربعة: العقل والضبط والإسلام والعدالة.

ويلخص لنا الدكتور "ربيع" واحدًا من أهم كتب السيوطى فى التاريخ، وعنوانه "**التاريخ فى علم التاريخ**"، وضع فيه السيوطى ما يرى أنها فوائد مهمة لا يليق بالكاتب والمؤرخ جهلها. ومن هذا الكتاب يتضح لنا أن الحس التاريخى عند جلال الدين السيوطى نشأ فى الأصل من إحساسه بمصر وبتاريخها المدون على صخورها، ففى كتابه هذا الواقع فى ثلاثة أبواب يدرس فى بابه الأول بداية التاريخ الحقة، فيرى أنها تلك الإشارة التى نقشها الأولون على الصخر وجدران الكهوف. وفى الباب الثانى يدرس السيوطى فوائد التاريخ، ومنها «معرفة الآجال وحلودها، وانقضاء العدد وأوقات

التعاليق، ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم، فنعرف بذلك كذب الكاذبين، وصدق الصادقين».

أما في الباب الثالث فيدرس السيوطي بعض المصطلحات والأدوات التي يجب أن يلتزم بها المؤرخ في كتابته للتاريخ. ويعلق الدكتور "ربيع" على ذلك قائلاً إن السيوطي نظر إلى التاريخ كعلم، متأثرًا في ذلك بالمدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي، وإن السيوطي لم يكتب التاريخ متبعًا طريقة الحوليات كـ"المقريزي والعيني" وغيرهما، بل كان له منهجه الخاص به، ويضرب المثل على ذلك بكتاب السيوطي **"تاريخ الخلفاء"** الذي تأثر في كتابته بمنهج علماء الحديث، وهو منهج يعتمد أصلاً على الجرح والتعديل أي العدالة والضبط، والمعروف أن النقد عند علماء الحديث كان ذاتيًا منصبًا على الرواة لا موضوعيًا منصبًا على المرويات.

ولقد استخدم السيوطي لفظة الفن في وقت مبكر جدًا، إذ يقول في مقدمة كتابه "الأشباه والنظائر": «إن الفنون العربية على اختلاف أنواعها هي أول فنوني، ومبتدأ الأخبار التي كانت في أحاديث سحري وشجوني، طالما سهرت في تتبع شواردها عيوني، وأسعى في تحصيل ما دثر منها سعيًا حثيثًا إلى أن وقفت منها على

الجم الغفير، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتـأملاً بحيث لم يفتنـى منها إلا النذر اليسير». ويشير الدكتور "عصام الدين عبد الـرؤوف" إلى أن السيوطى أورد فى كتابه "الأشباه والنظائر" ما يدل على تفنينه وابتكاره فى تعميم الفن وترتيب فصوله وتسلسل أقسـامه أولاً بـأول إلى السـابع مـن الفنـون ... «فـالفن الأول: درس القواعـد النحويـة، وسار فى هذه الدراسة على طريقة الحروف الأبجدية، والفـن الثـانى: فى الإعراب، والفن الثالث: فـى كـلام العـرب، والفـن الرابـع: فـى الفروق العلمية، والخـامس: فـى الأفـراد والغرائـب، والسـادس: فـى المناظرات والمجالسات والمذكرات والمراجعات والمحـاورات والفتـاوى والمكاتبات والمراسلات، والفـن السـابع: فـى بعـض المسـائل العلميـة الغريبة. مثل هذا النظام جرى تأليفـه فـى كتـاب "المزهـر فـى علـوم اللغة" ثم كتاب "الاقتراح فـى علـوم اللغـة" الـذى يـدل علـى علمـه وسبقه على أهل زمانه فى الإبداع، فلقد وضـع الأسـس الأولى لهـذا العلم الذى ضمنته بعض البحوث الشيقة المفيدة، وعنـى المستشـرقون بها حتى أنهم ترجموها إلى لغاتهم».

وحقيقة الأمر أننا لو استطردنا فى بحث جوانب العظمة عند جلال الدين السـيوطى فلـن يكفينـا غـير مجلـدات ربمـا زادت علـى مجلداته التى أتحـف بهـا المكتبـة العربيـة، فسـاهمت فـى إثـراء الفكـر

العربى وتطويره، بل وتطوير الفكر العربى نفســه. ولكـن علـى مـن يريد المزيد من التعرف على هـذا العـالم الجليـل فإننـا نحيلـه إلى تلـك الندوة الهامة التـى كـان قـد أقامهـا المجلـس الأعلـى للفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى شهر مارس ١٩٧٦ ونشرتها الهيئة المصريـة العامـة للكتـاب بعـد ذلك بعامين.

الفصل الثاني

ابن عبد الحكم

واضع أساس التاريخ القومي العربي المصري

يجمع المؤرخون ودارسو التاريخ علـى أن "**عبـد الرحمن بن عبد الحكم**" هو عمدة المؤرخين الإسلاميين ..

ليس هذا فحسـب، بـل إنـه واضـع أسـاس التـاريخ القومى العربى المصـرى .. وكـان كتابـه الشـهير "فتـوح مصـر والمغـرب"، أو "فتوح مصر وأخبارها"، أو"فتوح إفريقية والأندلـس"، أو "تـاريخ مصر القديم"، أو "فتح الأندلس" .. كتابًا رائدًا بحق لم يسبق له مثيل فى الثقافة العربية فى ذلك الوقت ..

وقد اشتهر الكتاب بكـل هـذه العنـاوين لأن جهـات كثيرة اقتبست منه ونشـرت بعـض أجزائـه، ولكـن المؤرخـين يؤكـدون أن

الطبعة الوحيدة المكتملة هى طبعة لندن التى نشرها المستشرق "تورى" بعنوان **"فتوح مصر وأخبارها"** سنة ١٩٢٠م.

ولعله من الطريف، ومن غير المستنكر فيما يبدو أن جهة عربية واحدة لم تعن بتحقيق هذا الكتاب ونشره على نحو يليق بمكانة صاحبه العلمية .. والواقع أن المثقف العربى المعاصر لابد أن يخجل من نفسه حينما يكتشف يومًا بعد يوم أن جميع ذخائر تراثنا اكتشفها مستشرقون أجانب وبادروا بدراستها ونشرها، ولولاهم لبقيت هذه الذخائر نسيًا منسيًا.

ويؤكد المؤرخ الدكتور "أحمد عزت عبد الكريم" أن هذا الكتاب العظيم عرف طريقه إلى النور فى بداية القرن الخامس الهجرى، أى بعد ما يقرب من قرنين من تأليف كتابه حين بدأ بعض الكتاب يروون عن ابن عبد الحكم، وقد بقيت نسخة مخطوطة يتداولها الرواة إلى أن ظهرت أول قطعة منشورة منه عام ١٨٥٦م، ثم ظهرت قطعة أخرى عام ١٨٥٨م، ثم ظهر جزء منه عام ١٩١٤م.. إلى أن تكفل المستشرق الإنجليزى "شارل تورى" عام ١٩٢٠م بنشره كاملاً حيث طبع فى مطبعة جامعة ييل. ثم نُشر جزء منه فى الجزائر سنة ١٩٤١م، وهو الجزء الخاص بفتوح المغرب والأندلس. وفى عام ١٩٦١م، نشر الأستاذ "عبد المنعم عامر"

بالقاهرة جزءًا بعنوان "القسم التاريخى". وتبقى نسخة المستشرق الإنجليزى هى النسخة الوحيدة المعتمدة حتى الآن .. رغم وجود المخطوط الأصلى فى مكتبة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

ومن يقرأ جميع المؤلفات التاريخية عن مصر والمغرب والأندلس يجد أن "عبد الرحمن بن عبد الحكم" يعد مرجعًا أساسيًا فيها.

ولكن ما الذى يجعل من عبد الرحمن بن عبد الحكم مؤرخًا على الرغم من أن علم التاريخ لم يكن معروفًا فى الثقافة العربية من قبل، اللهم إلا علم الأنساب وكان شفهيًا يتناقلونه بالرواية ؟

وكان العصر الذى نشأ وعاش فيه عبد الرحمن بن عبد الحكم -القرن الثالث الهجرى- عصر علوم الحديث والفقه وعلم الكلام.

هل كان لمصرية ابن عبد الحكم دخل فى نشأة الحس التاريخى لديه؟ أم أن هذا الحس التاريخى نشأ عنده بفتح مصر بإعتباره أول حدث كبير يحققه الزحف الإسلامى نحو افتتاح البلدان، بمعنى أن فتح مصر يعتبر من الناحية التاريخية أكبر انتصار للإسلام بإعتبارها مهد الديانة وفردوس الخير.

وفى بحث لها عن المنهج التاريخى لابن عبد الحكم، تقول

الدكتورة "سيدة إسماعيل الكاشف": «كان وادى النيل من أكثر الأقاليم التى فتحها العرب إقبالاً على الأخذ بالحضارة العربية الإسلامية، وأتيح لمصر أن يكون لها شأن عظيم فى شتى نواحى الحضارة العربية الإسلامية. وكان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الأدبية الإسلامية هو ما كتبه المصريون فى التاريخ، ونستطيع القول أنه ليس هناك أمة إسلامية أخرى تستطيع أن تفخر بمثل ما خلفه المصريون من دراسات فى تاريخ بلادهم .. وقد أنجبت مصر عددًا وافرًا من المؤرخين، وحسبنا أن نذكر ابن عبد الحكم، وابن الداية، والكندى، وابن زولاق، وابن أبى أصيبعة، والعماد الأصفهانى، وأبا شامة، وابن واصل العفطى، ابن خلكان، وابن شداد، والذهبى، والمقريزى، والعينى، وأبا المحاسن بن تغرى بردى، وأبا الفدا، والسخاوى، وابن إلياس...الخ».

يخيل إلىّ إذن أن ابن عبد الحكم ومن بعده كل هؤلاء، لمصريتهم دخل كبير فى يقظة الحس التاريخى فى الثقافة العربية الإسلامية، فالوعى بالتاريخ حس؛ بل مزاج مصرى أصيل.

والرأى عندى أننا والأمر كذلك لسنا محتاجين للبحث فى أصل جنسية ابن عبد الحكم، هل هو من أصل مصرى أم من القبائل العربية التى استوطنت فى البلدان الأخرى يخلعون على أراضيهم

معنى الوطن، فإن أرض مصر هى التى تخلع على الناس معنى الوطن، إنها أرض تستوطن البشر، ولابد لمن يعيش فيها -ولو من أى ملة- أن يأخذ موقف الدفاع عنها بحب وتفان صوفى بمجرد أن يعيش فيها، وهى "روح" عظيمة موجودة فى داخل كل من يعيش على أرضها لا تخفيه إلا المثبطات والحالات والاستبدادات التاريخية، لكن لأنها "روح" عظيمة خلاقة فإنها فى عصور الاستبداد السياسى أو الاستعمارى تتحول إلى طاقة ثقافية محضة، ولذا فهى أمة ظلت لعهود طويلة وحتى وقت قريب ترفع سلاح الثقافة وتجيد استخدامه.. وهذا يفسر لنا كيف أن الشخصية المصرية احتضنت كل الثقافات التى وفدت عليها مع الغزاة والمستعمرين فمصّرتها.

نفس الأمر حدث مع الثقافة العربية الإسلامية، التى اتفقت تمام الاتفاق مع طبيعة ومزاج الشخصية المصرية، فاللغة العربية لم تكن فى ذلك الوقت لغة مستعمر، بل كانت بالنسبة للشخصية المصرية المتدينة بطبعها هى لغة الله، ومادام سبحانه قد تحدث إلى خلقه باللغة العربية إكرامًا لخاطر نبيه العظيم محمد، فقد وجب على الكافة أن يتعلم لغة الله، ليقرأ بها حقائق الكون والوجود ونواميس الطبيعة قراءة جديدة تختلف عن تلك التى استقرأتها لغات الثقافات البائدة.

ارتبط المزاج المصرى بالإسلام ارتباطًا عضويًا لا تشوبه ذرة منفعة، كان إسلام المصريين إسلامًا أصفى من أى إسلام آخر فى أى أرض أخرى، لأنه مبنى فى الأصل على صلة قديمة بالله فى عصور مختلفة، والقناطر بين المصرى وبين الخالق العظيم كانت ممتدة على الدوام، كل ما هنالك أن الحرف هو الذى تغير. ولقد أثر المزاج المصرى على الحرف العربى فرقّقَه ومَوْسَقه واكتشف أبعاده المترامية. وعلى أرض مصر الممتلئ باطنها بالحضارات والثقافات فرضت الثقافة العربية أبعادًا جديدة عمقت جوهرها الثمين وحولتها إلى حضارة فعلية وفعالة. ومع احترامنا للمدارس الفكرية والثقافية التى ازدهرت فى البصرة والكوفة والشام، فإن المدرسة المصرية كانت أوسع آفاقًا وأكثر وضوحًا وشمولية.

ويلاحظ الكثيرون من مؤرخى الحقب الإسلامية فى مصر أن الثقافة الدينية كانت مصحوبة بظاهرة العائلات المثقفة، فالعادة أن ينبع من كل عائلة مثقف أو اثنين أو ثلاثة مثلاً، ولكن مصر انفردت بظاهرة العائلات المثقفة بكاملها، بمعنى أن يكون كل أفرادها من العلماء والأساتذة المشهود لهم بسعة الاطلاع وقوة الحجة.

من هذه العائلات المثقفة كانت عائلة عبد الحكم، أو بنى عبد الحكم كما يسميهم المؤرخون، وهى العائلة التى نشأ فيها مؤرخنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم.

وعن أسرة بنى عبد الحكم يقول الأستاذ المؤرخ "محمد عبد الله عنان": «كانت أسرة بنى عبد الحكم من أشهر وأعرق الأسر المصرية التى عاشت بالفسطاط، عاصمة مصر الإسلامية، خلال القرن الثانى وأوائل القرن الثالث للهجرة. ولم تكن شهرتها ترجع فقط إلى وجاهتها وغناها، لكنها كانت ترجع بالأخص إلى ما تميزت به من العلم الغزير، ومن الورع، والتقوى، وثمة عامل آخر فى تدعيم شهرة بنى عبد الحكم وسمعتهم العلمية والأدبية، هو استقبالهم الكريم للإمام الشافعى حين مقدمه إلى مصر، ومعاونتهم له على الإقامة بها، وعلى إذاعة علمه ومذهبه بين علمائها»...

وكان عميد أسرة بنى عبد الحكم معاصرًا للإمام مالك بن أنس الإصبحى. وكان مالكى المذهب، ولد فى مدينة الفسطاط بين عام ١٥٠ و١٥٥هـ، واسمه "أبو محمد بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع"، درس الفقه المالكى على يد تلميذ الإمام مالك ورئيس المالكية بمصر "أشهب بن عبد العزيز"، وكان ذلك فى مدينة الإسكندرية التى انتقل إليها حيث كانت ملتقى الفقهاء المالكية المصريين الذين يعتبرون السكنى فى الثغر نوعًا من الجهاد وطلب الثواب. وبعد موت الجد فى الإسكندرية استقرت الأسرة فى الفسطاط.

وكانت مدينة الفسطاط فى ذلك الوقت عاصمة دينية ومركزًا ثقافيًا مشعًا، وكان جامع عمرو بالفسطاط أكبر جامعة ثقافية فى ذلك الوقت يحج إليه طلاب العلم والمعرفة من كافة الأنحاء، وقد ساعد على تدعيم مركز الفسطاط الثقافى نزول الصحابة إليها. وكان أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح -فيما تقول الدكتورة "سيدة الكاشف"- هو عبد الله بن عمرو بن العاص، ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية والمعلم الأول فيها، إذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث.

بعد موت عميد أسرة بنى عبد الحكم تعمدها ابنه "عبد الله ابن عبد الحكم" وكان فقيهًا كبيرًا، وكان رئيسًا للطائفة المالكية بعد وفاة "أشهب بن عبد العزيز" عام ٢٠٤هـ.

ولقد توفى هو الآخر عام ٢١٤هـ، وكان له أربعة أبناء هم: عبد الحكم، ومحمد، وعبد الرحمن، وسعد.

وقد ولد عبد الرحمن عام ١٩٨هـ، وحين كان الإمام الشافعى فى ضيافتهم كان عمره لا يتجاوز الحادية عشرة. وكان أبوه عبد الله هو الذى استضاف الشافعى ودفع له ألف دينار من ماله الخاص ليستعين بها على الحياة، وجمع له من ابن عسامة التاجر

ألف دينار، ومن رجلين آخرين ألف دينار، الأمر الذى أتـاح للإمـام الشافعى حياة مستقرة صنّف خلالها كتبه، وكوّن مذهبه الجديد الذى جمع فيه بين مذهبى الرأى والحديث، والذى بـات منتشـرًا فـى ديار مصر ينافس مذهب الإمام مالك بن أنس.

ولعلنا نلاحظ هنا مدى اتساع أفق هـذا الأب عبد الله بن عبد الحكم، فقد كان مثل أبيه عميد الأسرة مالكيًا حتى أطراف أصابعه، كذلك كان أبناؤه عبد الحكم وعبد الرحمن وسعد، وكان المفروض، تبعًا لبعض المفاهيم السائدة فى ذلك الوقت أن تتعصب هذه الأسرة لمذهبها فلا تدعو لمذهب غيره ولا تناصره، ولكن عبد الله كان أوسع أفقًا وأعمق إيمانًا وأكثر ثقافة ونضجًا ووعيًا من أن يتخذ مثل هذا الموقف، فيما أنه كذلك فإنه ينطلق فى حياته من تقدير خاص للعلم والعلماء، ويرى أن اختلاف المذاهب ليس إلا إثراء للدين الإسلامى فى نهاية الأمر، وهذا يدلنا على نوع التربية العلمية التى تلقاها عبد الرحمن فى صباه وطفولته وشبابه، ونعنى بها الانفتاح والسماحة واتساع الأفق، يكفى أنه كان يحضر مجالس العلم والفقه المقامة فى بيتهم ليل نهار يؤمها الجهابذة الكبار.

كانت أهداف الأب أهدافًا علمية بحتة، والدليل على ذلك أن ابنه محمد -وهو المالكى المذهب- بات مصاحبًا للإمام الشافعى

فى مجالسه، وأنكر عليه ذلك أتباع مذهب مالك، فكان الأب يقول لهم: «هو حدث ويجب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك». وكان يشجع ابنه محمد قائلاً: «الزم هذا الشيخ، فما رأيت أبصر منه بأصول العلم». ولما مات الإمام الشافعى، ظن القوم أن رئاسة الطائفة الشافعية ستئول إلى محمد، لكنها آلت إلى "يوسف بن يحيى البويطى"، وآلت رئاسة المالكية فى مصر إلى "محمد بن عبد الله بن عبد الحكم"، وكان المفتى فى مصر أيامه: وطارت شهرته وذاع صيته فى كافة البقاع الإسلامية..

وهكذا كان لابد لعبد الرحمن بن عبد الحكم أن ينشأ مثقفًا عالمًا فى الحديث مثل أفراد أسرته، لكنه تميز عنهم بيقظة الحس التاريخى، الذى بفضله -وبفضل كتابه الشهير - بات علمًا على أسرة عبد الحكم، بات أشهرهم جميعًا، ذلك أن كتابه كان -بتعبير الدكتورة "سيدة الكاشف"- فتحًا جديدًا فى تاريخنا القومى والوطنى.

وقد أحب "عبد الرحمن" كتابة التاريخ من خلال علم الحديث والرواية الشفاهية ودراسة سيرة النبى عليه الصلاة والسلام وأخبار الغزوات، وتضيف الدكتورة "سيدة" قائلة: «وظهر من تاريخ ابن عبد الحكم أنه تأثر بحياة أسرته العلمية: وانعكس هذا كله على

ما خلفه فى كتابه عن تاريخ مصر. وعاصر ابن عبد الحكم أحداث مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أواخر العصر الذى اصطلحنا على تسميته باسم عصر الولاة، وهو العصر الذى يمتد من الفتح العربى لمصر إلى قيام الدولة الطولونية. كما عاصر قبل وفاته مولد أول دولة عربية مستقلة فى مصر الإسلامية وهى الدولة الطولونية، وتأكد حبه لمصر وولاؤه لوطنه من الوجهة التى اتخذها فى كتابة التاريخ. فقد اتجه معظم المؤرخين فى عصر بن عبد الحكم إلى كتابة تاريخ عالمى وإسلامى، أى أنهم نظروا إلى التاريخ نظرة عالمية تبدأ قبل الإسلام وتستمر بعد الإسلام، كما أنهم كتبوا عن العالم الإسلامى عامة معبرين بذلك عن فكرة وحدة الأمة. أما مؤرخنا ابن عبد الحكم فكان أول من كتب فى التاريخ المحلى أو الإقليمى، ووضع ابن عبد الحكم بذلك أساس التاريخ القومى العربى المصرى، وافتتح بكتابه "فتوح مصر وأخبارها" مدرسة مصر للتاريخ التى أكملها المؤرخون المصريون من بعده، وأصبح كتاب ابن عبد الحكم أقدم كتاب فى تاريخ مصر الإسلامية. وعلى الرغم من أن ابن عبد الحكم سار على منهج الكتابة التاريخية الذى سار عليه سائر المؤرخين فى ديار الإسلام عامة، إلا أنه كان أول من انفرد من مؤرخى ديار الإسلام بكتابة التاريخ المحلى لمصر من

الأمصار، وكان كتابه فى التاريخ رائدًا لكتب التاريخ المحلى فى الأمصار المختلفة فى العالم الإسلامى».

وعن خطط الفسطاط فيما كتبه عبد الرحمن بن عبد الحكم يقول الدكتور "عبد الرحمن زكى": «لاشك أن ابن عبد الحكم هو الواضع الأول لأسس الخطط المصرية فى مدينة الفسطاط التى عاشها مع أسرته منذ وطأت أقدامها تلك المدينة الإسلامية حينما نشأت صغيرة متواضعة فى مرحلة نموها الأولى، ولاسيما خلال القرون الثلاثة الأولى». وعن أسلوب ابن عبد الحكم فى وصف الخطط يقول الدكتور زكى: «يتميز أسلوب عالمنا الجليل فى وصف خطط الفسطاط بالوضوح والترتيب الطبوغرافى، ونلاحظ أن جميع الذين درسوا الخطط المصرية بعده اتبعوا أسلوب ابن عبد الحكم وقلدوه، بل إننا لا نبالغ حقًا إذا قابلنا أسلوب بن عبد الحكم الطبوغرافى بالأسلوب الذى يتبعه اليوم المتخصصون فى التأليف السياحى. ولعل أهم تلك المؤلفات، تلك التى درجت دار النشر الألمانية على كتابته للسياح "دليل بديكر"، فمنهج مؤلف هذا الدليل الحديث هو منهج ابن عبد الحكم فى كتابه الذى ألفه منذ مائة وألف سنة».

وإليك نموذج من كتابات ابن عبد الحكم فى تاريخ الفتح العربى لمصر يعتمد عليه كافة المؤرخين من بعده، إذ يتكلم عن الدور

الذى قام به المقوقس –حاكم مصر من قبل هرقل الروم– فى الفتح، فيقول:

«فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فرد عليهم عمرو مع رسله، أنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية من يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ...

«وقد أرسل عمرو بن العاص هذه الرسالة مع عشرة رجال، أحدهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم عند المقوقس وحاشيته وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث خصال ...

«وكان عبادة أسود اللون، فلما وصلوا إلى المقوقس ودخلوا عليه، تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال: نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى. فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه. ثم قال المقوقس لرسول عمرو بن العاص ومن معه: كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ وإنما ينبغى أن يكون هو

دونكم؟ فأجاب رسل عمرو بن العاص على المقوقس قائلين: كلا إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا. ثم قال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود .. لقد أقمتم بين أظهرنا أشهرًا، وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم .. ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به ...

«فرد عليه عبادة بقوله: يا هذا لا تفرق نفسك ولا أصحابك ... وأما قولك إنك فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن أوسع السعة ... وليس بيننا وبينكم إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت. فقال له المقوقس: هذا ما لا يكون أبدًا ... إنكم تريدون أن تتخذوا لكم عبيدًا. فقال عبادة: هو ذاك فاختر ما شئت. فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس لأصحابه وقال: لقد فرغ القوم فما ترون؟ ... فقالوا: لا يرضى أحد بهذا الذل، فلا يرضى أحدنا بدخولنا فى دينهم. فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى فراجع صاحبك. ولما

قام عبادة وأصحابه قال المقوقس لمن حوله من الرومان: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث. فقالوا: وأى خصلة تجيبهم إليها؟ قال: أخبركم، أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فإننا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولابد من الثالثة. ورضى الرومان بعد ذلك على الصلح ودفع الجزية، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص بذلك، وقال له إنه كان حريصًا على إجابته إلى خصلة من تلك الخصال الثلاث. وطلب المقوقس الأمان، كما طلب الاجتماع بعمرو بن العاص فى نفر من أصحابه. ولما تم الصلح اتفقوا على أن يفرض العرب على جميع من يشر من القبط دينارين على كل فرد... وبذلك أعطاهم عمرو بن العاص الأمان على أرضهم وأموالهم، وبلغ عدد من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط أكثر من ستة آلاف نسمة -أى ستة مليون نفس- وبلغت الجزية يومئذ اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة -أى ١٢ مليون دينار».

وقد وصف ابن عبد الحكم التنظيم الإدارى المالى فى مصر وصفًا دقيقًا، يقول عنه الدكتور إبراهيم العدوى : «زاد فى أهمية وصف ابن عبد الحكم وأصالته قدرته على ربط معالم التنظيم الإدارى والمالى فى مصر بالتطور العظيم الذى شهده تطبيق التشريع

الإسلامى فى البلاد المفتوحة على عهد كل من الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ومدى تجاوب الإدارة العربية فى مصر مع مظاهر الاجتهاد التى سادت الدولة الإسلامية إذ ذاك».

وبعد، فلا يسعنا إلا أن نعيد رجاء الدكتور "عزت عبد الكريم" فى نشر هذا الكتاب نشرًا كاملاً محققًا يعتمد على جميع النسخ الخطية الموجودة والمصورة سواء فى القاهرة أو اسطنبول أو لندن أو باريس.

الفصل الثالث

القلقشـــندي

صاحب البانوراما التاريخية التسجيلية الكبرى

تميز القرن التاسع الهجرى -الخامس عشر الميلادى- بقيام المدرسة التاريخية المصرية الإسلامية، حيث أصبح هناك موسوعات كبرى تؤرخ للأرض، للمدائن، للبلدان ... وأخرى تؤرخ للشخصيات والقادة، وغيرها تترجم للأعيان من رجالات الفكر والأمانة والعلم فى المجتمع ... وثمة موسوعات أخرى تؤرخ للزمان نفسه، ويسمونها الحوليات، حيث يدون فيها المؤرخ ما يشبه اليوميات بتعبيرنا الحديث، ويدون أحداث سنن الحكام عامًا بعد عام، وما صاحبها من حركة النيل صعودًا أو هبوطًا، وما نتج عن ذلك من قحط أو خير...

وهكذا تنوعت أشكال الكتابة التاريخية فى مصر فى العصور الوسطى الإسلامية، ونبغ رجال أفذاذ لابد أن ينحنى أمامهم الإنسان المعاصر إجلالاً وتقديرًا، خاصة حين يتضح نه أن كل موسوعة من هذه الموسوعات النادرة ألفها إنسان واحد فرد، بل ربما تكون هذه الموسوعة أو تلك إحدى الموسوعات العديدة التى ألفها على امتداد حياته، والتى تقع الواحدة منها أحيانًا فيما يزيد على عشرين مجلدًا مثلاً، ولربما جاء أحد معاصريه فصنع له ذيلاً، أى ملحقًا يكتب فيه ما يرى أنه تصحيح لبعض ما ورد فى هذه الموسوعة من أخطاء أو آراء هامة تحتاج إلى تعليق، ويطلق على ملحقه هذا، أو كتابه هذا، اسم الذيل على كذا، الذيل على كتاب الأغانى مثلاً أو على الأمالى للقالى وهكذا...

ومعظم دارسى تاريخ العصور الوسطى الإسلامية فى مصر يرجعون الفضل فى قيام هذه المدرسة إلى وجود ابن خلدون فى مصر آنذاك، وما أشاعه من مفاهيم متقدمة للتاريخ والاجتماع والعمران. وقد نعقب على رأيهم هذا بأن الفضل يعود أولاً إلى طبيعة مصر كمجتمع ثقافى بطبعه، تجد التاريخ أينما ذهبت مدونًا على الجدران وأحجار الطريق وأرصفة الموانى. ثم أن مصر هى المجتمع الذى احتضن ابن خلدون نفسه وهيأ له من الأنداد والمريدين والتلاميذ

والمناصب الأبهة ما ساعده على الإبداع...

وإذا كان كل مؤرخ من مؤرخى المدرسة المصرية فى العصور الوسطى الإسلامية قد تعامل مع التاريخ المباشر سواء بالنسبة للمكان أو للزمان أو ترجمة للحياة نفسها بشكل غير مباشر، كل ذلك من خلال مؤلف واحد من مؤلفاته العديدة هو **"صبح الأعشى فى صناعة الإنشا"**، والذى يقع فى أربعة عشر جزءً، ويعتبره المؤرخون سجلاً هائلاً للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فى مصر طوال العصور الوسطى.

أما مؤلفاته الأخرى فمنها كتاب "ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر"، وكتاب "قلائد الجمان فى قبائل العربان"، وكتاب "نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب"، وكتاب "الغيوث الهوامع فى شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع"، وكتاب "مآثر الأنافة فى رسوم الخلافة". ولكن كتابه "صبح الأعشى" حظى بمكانة لائقة لا تقل أهمية عن تلك التى لقيتها خطط المقريزى، ذلك أن هذا الكتاب الجليل، أو الموسوعة الهامة تمدنا بروافد خطيرة فى جميع حقل المعارف الإنسانية.

ولقد تميز القلقشندى بأنه رجل أدب قبل أن يكون رجل علم، فموهبته الأساسية موهبة أدبية بالدرجة الأولى، بارعة فى

الإنشاء والتعبير عن النفس، ومن هنا فكتابته فى التاريخ تصويرية بلغة فنية خاصة.

ويجمل بنا أن نلم إلمامة يسيرة بقصة حياة القلقشندى، والواقع أن المعلومات عن حياته غير متوفرة، اللهم إلا بعض معلومات عامة أوردها السخاوى فى كتابه الفريد "الضوء اللامع" الذى ترجم فيه لكثيرين من رجالات عصره، فقد ولد القلقشندى سنة ٧٥٦هـ/١٢٥٥م، فى قرية تابعة لقليوب اسمها قلقشنده أو قرقشنده. سافر إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة، فدرس على شيوخ العصر وأساتذتهم الأجلاء. تخصص فى الأدب والفقه الشافعى، وظهرت ميوله الأدبية فى حبه لعلوم اللغة فأحرز تقدمًا فى البلاغة والإنشاء. كتب مقامة، أو رسالة وأسماها "الكواكب الدرية فى المناقب البدرية" كانت جواز المرور بالنسبة له، حيث لفتت الأنظار إلى أسلوبه الإنشائى البارع وقدرته البلاغية الفائقة، يصفها القلقشندى بأنها «اشتملت على جملة جملة من صناعة الإنشاء ووجهت القول فيها لتقريظ المقر البدرى، ابن المقر العلائى، ابن المقر المحيوى، ابن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ»...

وفى سنة ٧٩١هـ التحق القلقشندى بديوان الإنشاء كاتبًا،

أو موقعًا، وظل فيه ما يزيد على ربع قرن ... أى حتى وفاته. وانتهى من تأليف كتابه "صبح الأعشى" فى شهر شوال سنة ٨١٤ هـ. ويقول المؤرخون إنه رغم كفاءته الكبيرة لم يصل إلى منصب صاحب الديوان، ذلك المنصب الذى وصل إليه بعض تلاميذه، لأنه كان يفتقر إلى بعض المؤهلات التى تُشترط فى المرشح لهذا المنصب الخطير. وتشاء الظروف أن يكون هو الوحيد دون كل من شغلوا هذا المنصب، الذى يخلد ديوان الإنشاء ويعطيه مكانته اللائقة به فى التاريخ، وأن يعطى بالإضافة إلى ذلك موسوعة هائلة تفيد فى كل فروع المعرفة الإنسانية.

والعجيب أن موسوعة "صبح الأعشى" هذه رغم طولها الذى يصل إلى أربعة عشر مجلدًا ضخمًا هى عبارة عن مقدمة وعشر مقالات لا أكثر، يتحدث فى المقدمة عن فضل القلم والكتابة، وعن معنى الإنشاء، وصفات الكتاب وآدابهم، وتاريخ ديوان الإنشاء وأصله فى الإسلام، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه، ووظائف الديوان فى مصر الإسلامية. وفى المقالة الأولى يتحدث عن المصادر التى ينبغى على الكاتب أن يستمد منها ثقافته الإنشائية ومعارفه وخبراته الدولية ... ويتحدث أيضًا عما يحتاجه الكاتب من أنواع الأقلام والأحبار والأوراق، ويختتم ذلك بحديث عن تاريخ الخط

العربى. وفى المقالة الثانية يتحدث عن جغرافية ونظام الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام، وبخاصة مصر والشام وغيرهما من الدول. وفى المقالة الثالثة يتحدث عن أنواع المكاتبات، وأنواع الأقلام التى تصلح لها، وأحجام الورق، وعن المراسم وأنواعها، وعن أقلام الترجمة، وعن افتتاحيات الرسائل واختتامها، كل ذلك من خلال ما كان يحدث فى ديوان الإنشاء المصرى. وفى المقالة الرابعة يقدم لنا ثبتًا لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة، مع شرح لكل الألقاب والصفات الخاصة بكافة رجالات المجتمع من خلفاء وولاة عهد وسلاطين إلى أهل الصلاح ومشايخ الطرق الصوفية وأكابر النصارى ... ويتحدث عن مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب وكتاب مصر منذ ظهور الإسلام، ثم عن المكاتبات الصادرة من الملوك إلى الخلفاء، ومن الملوك إلى نواب السلطنة وإلى العمال والقضاة ورجال الدولة، والمكاتبات الصادرة من ملوك الديار المصرية إلى ملوك ورجال الدول الخارجية على اختلاف مللهم، مقدمًا نماذج حية من كل تلك المكاتبات أو المراسلات، ثم عن المكاتبات الواردة إلى الديار المصرية من رجال الدولة، ومن ملوك الغرب والدول المجاورة على اختلاف سلطانهم وأحجامهم، مقدمًا كذلك نماذج منها.

ويصف المؤرخ "محمد عبد الله عنان" هذه المقالة بأنها أهم مقالات الكتاب وأضخمها. كما يصف المقدمة البديعة بأنها تصلح أن تكون وحدها مؤلفًا مستقلاً. وهو يلخص لنا بقية الكتاب فيقول إن المقالة الخامسة تتحدث عن مسألة الولايات وطبقاتها من الخلافة والسلطنة، وولايات أرباب السيوف وأرباب القلم، ثم الألقاب من خلافية ومملوكية، والألقاب الصادرة إلى ذوى الولايات المختلفة، ثم البيعات وما يكتب فيها بالنسبة للخلفاء والملوك، ثم العهود وغيرها ... مقدمًا نماذج من مختلف المراسيم والعهود الصادرة. ويقول أيضًا إن المقالتين الرابعة والخامسة يشتملان على مئات الوثائق والنصوص الرسمية والدبلوماسية التى تلقى الضوء على تاريخ مصر النظامى والإدارى فى عصور الخلفاء والسلاطين وعلى السياسة الخارجية المصرية وعلائق مصر بالأمم الإسلامية والنصرانية فى تلك العصور، وهى مادة نفيسة من الوثائق والمحفوظات الجليلة التى لا يمكن أن نظفر بها فى مؤلف آخر.

وفى المقالة السادسة يتحدث القلقشندى عن الوصايا الدينية والمسامحات، وتصاريح الخدمة السلطانية، وعن التواريخ ومقابلاتها. وفى المقالة السابعة يتحدث عن الإقطاعات وأصلها ونشأتها وأحكامها وأنواعها. وفى المقالة الثامنة يتحدث عن الأيمان وأنواعها

منذ الجاهلية وفى عصور الإسلام، والأيمان الملوكية والأميرية فى الدول الإسلامية وغيرها. وفى المقالة التاسعة يتحدث عن عهود الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر، وما يكتب منها لأهل اللومة، ثم الهدنة وأنواعها وصيغها، وعقود الصلح ونماذجها. وفى المقالة العاشرة يتحدث عن شئون ديوان الإنشاء الأخرى مثل البريد وتاريخه فى مصر والشام، والحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته، والمناور والمحرقات التى كانت تستعمل فى استطلاع حركات العدو.

وقد اهتم القلقشندى بجمع هذه الوثائق وإيرادها، لا بهدف تاريخى محض، وإنما لكى تستفيد بها الأجيال فى صناعة الإنشاء. وعن وثائق القلقشندى فى "صبح الأعشى" يقول الدكتور "عبد القادر أحمد طليمات": «كيفما كان الغرض الذى من أجله أورد القلقشندى الرسائل بأنواعها فى كتابه فإنها هامة جدًا لأكثر من سبب ... فقد تبين أن من ضمن رسائله رسائل نادرة فُقدت أصولها فلا توجد إلا فى كتابه، منها الرسالة التى وجهها الملك الأيوبى "الجواد" إلى "فرانك" ملك بيت المقدس، فإن العثور على نصها فى غير صبح الأعشى أمر مستحيل، خاصة أن القلقشندى لم يذكر مصدره الذى نقلها عنه، ومن الرسائل النادرة أيضًا الرسالتان

المتبادلتان بين أبى الحسن على بن عثمان بن يوسف بن يعقوب المرينى صاحب "فاس" وبين سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون».

وترجع أهمية الرسالة الأولى -فيما يقول الدكتور "طليمات"- إلى أنها توقفنا على سياسة صلاح الدين مع الصليبيين والتى لم ترد عند مؤرخ آخر. ففى الفترة ما بين سنة ٥٧٠هـ وسنة ٥٨١هـ، كان صلاح الدين مشغولاً بحروبه مع بنى زنكى للاستيلاء على دولتهم فى الشام والجزيرة، فأخذ يتودد إلى الصليبيين حتى نال بغيته من الزنكيين ثم اتجه بعد ذلك إلى الصليبيين يقاتلهم. ويفهم من مضمون الرسالة أن الرسائل كانت متبادلة بين صلاح الدين وبين بلدوين الرابع أيضًا الذى يصفه صلاح الدين بالصديق.

وهذا هو نص الرسالة كما وردت فى "صبح الأعشى" للقلقشندى:

«كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى برودويل أحد ملوك الفرنج وهو يومئذ مسئول عن بيت المقدس وما معه، معزيًا فى أبيه ومهنئًا له بجلوسه فى الملك بعده، ما صورته:

«أما بعد... خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحظ الزائد، والتوفيق الوارد،

وهنأه من ملك قومه ما ورثه، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنص الذى وددنا أن قائله غير صادق، بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله مُعَزٍّ بما يجب فيه العزاء، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء، إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث، بأن جعل ولده الوارث، وآنس المصاب، بأن حفظ به النصاب، ووهبه النعمتين: الملك والشباب، فهنيئًا له ما حاز، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه، وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا، وودنا الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا، فليلق التحية بمثلها، وليأت الحسنة ليكون من أهلها، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه، مودة ضافية وعقيدة صافية، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة، مع ما فى الدين من المخالفات، فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل، والله يديم تعميره ويحرس تأميره، ويقضى له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق».

ومما لا شك فيه أن كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى يعتبر بالفعل مصدرًا لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى. ويقوم الدكتور "سعيد عبد الفتاح عاشور" بهذه الدراسة فيضع يده على عديد من النقاط الهامة التى يتميز بها كتاب "صبح الأعشى" عن غيره من كتب معاصريه، أهمها أن كتب المعاصرين كانت تقتصر على ذكر الخبر مجردًا، أما القلقشندى فإنه يستكمل الموضوع من جميع جوانبه مدعمًا بالوثائق والمعلومات، والشرح والتصوير الذى يشبه التصوير الروائى، فحين يجىء خبر عن الأسعار مثلاً فإن القلقشندى يشير إلى النقود المتداولة وأقسامها وأنواعها، وحين يجىء خبر عن تأمير واحد من الأمراء فإن القلقشندى يصف الإجراءات المتبعة فى تلك المناسبة، وحين يجىء خبر عن إنعام سلطانى على أمير بإقطاع مثلاً فإن القلقشندى يشير إلى أنواع الإقطاعات وما يرتبط بها من حقوق وواجبات، وهكذا بالنسبة لسائر الأمور الواردة ضمن الموضوعات الرئيسية للكتاب... ومن هنا فإن كتاب "صبح الأعشى" يسد كثيرًا من الثغرات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى بما يحويه من معلومات خطيرة عن النظم الداخلية والعلاقات الخارجية، فضلاً عن الأضواء التى يلقيها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية، هذا إلى جانب تمتع القلقشندى بحاسة

تاريخية قويــة، وقـدرة على الربـط والاستنتاج، وتغلغـل فـى الواقـع المصرى، وخبرة وعلم، وشغف بتاريخ مصر على وجه الخصوص...

ويكتفى الدكتور "سعيد عبـد الفتـاح عاشـور" فـى دراسته بالتركيز على أهمية كتاب "صبح الأعشى" فـى دراسـة تـاريخ مصـر فى العصور الوسطى، مـن النواحـى الآتيـة: نظـم الحكـم والإدارة... الأوضاع الاقتصادية... الحياة الاجتماعية... السياسة الخارجية.

وفى ختام عرضه لنظـم الحكـم والإدارة فـى مصـر العصـور الوسطى كما صورها القلقشندى فى كتابـه "صبـح الأعشـى" يشـير الدكتور "عاشور" إشارة سريعة إلى ما جاء فـى تلـك الموسـوعة مـن معلومات قيمة عن الإقطاع والنظـام الإقطـاعى فـى مصـر: ذلـك أن الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك قامتـا علـى أسـس إقطاعيـة واضحة استعانت بها الدولتان لإعـداد جيـوش علـى أسـس إقطاعيـة تُمكـن السـلاطين والحكـام مـن مواجهـة الأخطـار المهـددة لهـم. ثم يقول: «ولم يقف الأمر فيما كتبه القلقشندى عند حد ذكر صور للكتـب والتواقيـع التـى كـانت تُكتـب عـن السـلاطين إلى الأمـراء المقطعين، وما كانت تحويه هذه التواقيـع مـن معـان عميقـة ووصايـا للمقطع بمراعـاة العدالـة فـى الرعيـة وحسـن تصريـف شئون البـلاد المقطعة، وإنما يشير القلقشندى إلى أن الإقطاع فى عصـر الممـاليك لم

يقتصر على الأرض، وإنما أقطعت سائر الأموال كالخراج والجزية والمكوس والضرائب وغيرها»...

وعن الحياة الاجتماعية يقول الدكتور "عاشور" إننا نجد فى كتاب "صبح الأعشى" وصفًا رائعًا لحياة الخلفاء الفاطميين العامة والخاصة، وما أحاط بهذه الحياة من مظاهر الثراء والإسراف. كذلك يفيض القلقشندى فى وصف حياة السلاطين المماليك ومن البيوت السلطانية وما كانت تحويه من آلات وما تضمه من موظفين وغلمان. وإلى جانب أوصاف القلقشندى ذات القيمة العلمية الكبيرة، للبلاط والحياة الرسمية والمواكب السلطانية وحياة السلاطين الخاصة والعامة، فإن الكتاب يتضمن أيضًا معلومات طريفة عن زى أعيان المملكة سواء أرباب السيوف من الأمراء أو أرباب الوظائف الدينية كالقضاة والعلماء، أو مشايخ الطرق الصوفية، أو أرباب الوظائف الديوانية، كذلك يحكى القلقشندى الكثير عن المناسبات والأعياد الدينية والقومية وما كان يحدث فيها أحيانًا من انحرافات اجتماعية، وأشهر الأمراض الاجتماعية التى عرفها المجتمع المصرى فى تلك العصور هى الرشوة والزنا واللواط وشرب الخمور وغيرها.

ويقدم الدكتور "جوزيف نسيم يوسف" دراسة عن علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق "صبح الأعشى"،

فيقول إن القلقشندى يتبع منهاجًا علميًا واضحًا يقوم على وحدة الفكرة من ناحية، وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى. ويقول لنا إننا نستدل من وثائق "صبح الأعشى" أن الدول التجارية الإيطالية التى كانت لها علاقات بمصر وقتذاك هى على التوالى: البندقية وجنوة وبيزة. ويقول أيضًا إن القلقشندى يمدنا بمعلومات طيبة عن البندقية وأهلها وصاحبها وألقابه. ويقول كذلك: «لقد أولى القلقشندى موضوع التجار الفرنج وعلى رأسهم التجار الإيطاليين الذين يفدون على مصر اهتمامًا كبيرًا فى وثائقه، فتراه يحدثنا بإسهاب وتفصيل عن ألقابهم التى اصطلح عليها لمكاتباتهم عن الأبواب الشريفة بمصر، وتكشف هذه الألقاب عن المكانة التى كان يتمتع بها أولئك التجار من ناحية، والصفات الواجب توافرها فيهم من ناحية أخرى، فهم الرسل والغاربون الملوك والقادة والحكام، وهم المصلحون بين القوم، وهم المؤتمنون على الأسرار، أما الصفات الواجب توافرها فيهم فهى فى المرتبة الأولى الصدق والأمانة والإخلاص والاستقامة والثقة وحسن السمعة وكتمان السر».

وعن الشخصية الأدبية للقاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على القلقشندى، يقول الدكتور "مصطفى الشكعة":

«نستطيع أن نصف القلقشندى بأنه أديب صانع مجتهد، فهو صاحب قلم مطواع ساندته ثقافة واسعة فى شتى العلوم والفنون: وهو أيضًا ذو فكرة رائقة عميقة، وأسلوب مشرق الديباجة، سنسل المأخذ والعطاء». ويقول: «ومشاركة القلقشندى الإبداعية ككاتب له تجاربه وأفكاره وأسلوبه تبدو واضحة جلية فيما أبدع وأنتج فى نطاق مؤلَّفِه "صبح الأعشى"، أو بالأحرى تتمثل هذه المشاركة فى مقالاته المستقلة التى ضمنها كتابه، ومثل بعض الرسائل الأخرى». ويقول كذلك: «ومن الأعمال الأدبية التى أبدعها القلقشندى وطرز بها كتابه رسالة فى المفاخرة بين العلوم، لقد ضمن القلقشندى هذه الرسالة نيفًا وسبعين علمًا يفاخر بعضها بعضًا فى بسطة من القول واضحة فى الأسلوب، واحتلت ما يقارب الثلاثين صحيفة من المجلد الأخير من "صبح الأعشى"، وقد شملت الرسالة علوم اللغة والنحو والشعر والعروض والموسيقى والطب وقص الأثر وخط الرمل وتعبير الرؤيا وأحكام النجوم والسحر وعلم الهيئة والأرصاد والمواقيت والهندسة وعقود الأبنية ومراكز الأثقال والفلاحة وارتباط المياه والآلات الحربية والكيمياء والحساب المفتوح وحساب التخت والجبر والمقابلة وحساب الدرهم والدينار وحساب الدور والوصايا والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل والمنطق ودراسة الحديث ورواية

الحديث والتفسير وأصول الدين والتصوف وتدبير المنزل والفراسة، إلى غير ذلك من أصناف العلوم». والحق -يقول الدكتور "الشكعة"- إن هذه المفاخرات قطعة رائعة من أدب الفكر.

وقد نضيف إلى كل ما تقدم أن هذا العمل العلمى الفذ للقلقشندى، والمسمى بصبح الأعشى، هو إلى كونه عملاً علميًا له أهميته التاريخية الكبرى، فهو عمل فنى له جلاله وخطره، يحق لروائيينا أن يستلهموه أشكالاً وموضوعات فنية روائية لا ينضب لها معين.

الفصل الرابع

تقي الدين المقريزي

عمدة مؤرخي المدرسة التاريخية الحديثة

لم يشتهر بين المؤرخين أحد شهرة المقريزى.

ولا يوجد بين المؤرخين العرب من هو أجدر منه بالشهرة. فهو أغزرهم إنتاجًا، وأكثرهم دقة، وأشدهم حرصًا على التوثيق وتمحيص المعلومات ونقدها وتحليلها اجتماعيًا واقتصاديًا.

وقد عنى المقريزى بالتاريخ أرضًا وأحداثًا وبشرًا ... ويرجع المؤرخون نبوغه فى التاريخ إلى أستاذه "عبد الرحمن بن خلدون" الذى تتلمذ المقريزى على يديه حينما كان "ابن خلدون" مقيمًا فى القاهرة.

المقريزى من العلماء القلائل الذين لم تضع مؤلفاتهم، فبقيت

كـل شـبهة مـن خـط يختـص بـه وحـده دون غـيره. إنما الواقـع أن مؤلفات المقريزى كانت تحمل فـى أعماقهـا عنـاصر البقـاء والحيـاة، فكانت، وسوف تظل إلى قرون طويلة قادمة، مرجعًا لا غناء عنه فى دراسة عصر سلاطين المماليك في مصر، وهو العصر الذى يمتـد مـن منتصف القرن السابع الهجـرى-الثـالث عشـر للميـلاد، حتـى أوائـل القرن العاشر الهجرى-السادس عشر للميلاد.

وأشهر كتب المقريزى -بالطبع- كتابه "**المواعـظ والاعتبـار بذكر الخطط والآثـار**". هـذه الموسـوعة الجغرافيـة التـى اهتـم فيهـا المقريزى بالتأريخ لكـل بقعـة فـى أرض مصـر والقـاهرة، اهتـم فيهـا بتأريخ المكان شبرًا شبرًا، ولم يترك بناية ذات أهمية إلا وتتبع تاريخهـا فى مختلف العصور، ولا بابًا من أبواب القاهرة إلا وبحـث فـى أصـل بنائه، حتى الجدران السائبة التـى تبـدو بـلا تـاريخ أرّخ لهـا المقريـزى وأصلها.

وقد أشاع "السخاوى" فى كتاب شهير لـه بعنـوان "الضـوء اللامع" -وكان معاصرًا للمقريزى ولم يسلم أحد من لسانه الجارح- أن المقريزى قد سرق هذا الكتاب من رجل يدعى "الأوحدى" الذى كتب مسودته، وقام المقريزى بنسخها مع إضافات قليلة. وقد شغل هذا الأمر جمهرة المؤرخين والمستشرقين فبحثوه حق البحث، وانتهـوا

إلى أن المقريزى كان عالمًا كبيرًا عظيمًا وأبعد ما يكون عن مشاهدة الشبهة، فى حين كان "السخاوى" شتامًا يبحث عن السوءات ليلصقها بالناس، ثم أن السخاوى نفسه كتب عن المقريزى معترفًا بأنه «قد حمدت سيرته فى مباشراته، وأنه كان يتصف بحسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده؛ والمحبة فى المذاكرة والمداومة فى التهجد والأوراد وحسن الصلاة ومزيد من الطمأنينة فيها واللازمة لسنته». ومن بين الذين عنوا بتحقيق هذه القضية الدكتور "سعيد عاشور"، وهو أحد أساتذة التاريخ الكبار ومن الذين تخصصوا فى دراسة المقريزى وغيره من مؤرخى العصور الوسطى.

وتأكد للباحثين أن المقريزى قد بدأ فى تأليف هذا الكتاب سنة ٨٢٠ هـ، وانتهى منه سنة ٨٤٣ هـ، أى ما يقرب من ربع قرن، ثم توفى بعد ذلك بعامين. غير أن هذه المدة لم تكن قاصرة على تأليف هذا الكتاب وحده بل كان المقريزى خلالها يكتب فى مؤلفاته الأخرى.

ولم يكن المقريزى يدخر أى جهد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة الكاملة خلال تأريخه للمكان، وكان ينتهز أى فرصة ليدلى بتصريحات وآراء وانتقادات تبدد غموض المعلومات وتضع النقط

فوق الحروف. وبهذا الأسلوب حقق المقريزى مستوى عاليًا جدًا من فهم التاريخ، واقترب من المفهوم الصحيح للتاريخ كما هو معروف اليوم، والفضل فى ذلك -كما يشير الدارسون- يرجع إلى اختلاطه بأستاذه "ابن خلدون".

ويتضح هذا الكتاب الموسوعى بحب المقريزى لمصر وللقاهرة بوجه خاص. يقول فى مقدمة الخطط: «وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحاميتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجو جوى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ... لازلت قد شذوت العلم، وأتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان من سكان ديارها». وعن مدى فهمه لرسالة التاريخ يقول فى فقرة سابقة من نفس المقدمة: «وبعد، فإن علم التاريخ من أجلّ العلوم قدرًا وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرًا، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى».

ولقد ولد الشيخ **تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر**

ابن محمد، **المعروف بالمقريزى**، فى قلب القاهرة، فى واحد من أشـد أحيائها شعبية وعراقة، فى حارة برجوان بحى الجمالية قلب القاهرة القديمة. وأما أصل أسرته فمن بعلبك، من حارة المقارزة، ووفد أبوه "على" إلى مصر ليستوطنها، حيث كانت القاهرة فى ذلك الزمن -مثلما كانت فى معظم الأزمان- ملاذًا يأوى إليه طلاب الرزق والعلم والأمان. ونظرًا لما كان يعانيه الأب النازح من عوز فقد تولى "ابن الصايغ الحنفى" -جد المقريزى لأمه- تربيته والإنفاق عليه وتعليمه وتنشئته على أصول المذهب الحنفى. وفى كتابه "الضوء اللامع" يؤرخ السخاوى للمقريزى فى ترجمة حياته قائلاً إنه بعد أن حفظ القرآن تلقى العلم على يد جده لأمه "الشمس بن الصايغ الحنفى، والبرهان الآمدى، والعز بن الكويك، والنجم بن رزين، والشمس بن الخشاب، والتنوخى، وابن أبى الشيخة، وابن أبى المجد، والبلقينى، والعراقى، والهتيمى، والفرسيس، والعماد بن كثير"، وغيرهم. وأنه حين ذهب إلى مكة ليؤدى فريضة الحج سمع بمكة من "النشاورى والأسيوطى، والشمس بن سكر، وأبى الفضل النويرى القاضى، وسعد الدين الاسفراييني، وأبى العباس بن عبد المعطى"، وأجاز له "الإسنوى والأذرعى وأبو البقاء السبكى، وعلى بن يوسف الزرندى، وأبو بكر الحافظ، وأبو العباس بن العز، وناصر الدين محمد

ابن داورد" من علماء الشام.

التحق المقريزى بالوظائف العامة: فعمل موقعًا -أى كاتبًا- بديوان الإنشاء بالقلعة، وهى وظيفة تتيح نشاغلها معرفة الكثير من أسرار الدولة الدقيقة، ولذا كان على شاغلها أن يتمتع بكفاءات خاصة علمية وأدبية وسياسية. ولما كان المقريزى قد تحول فى سن العشرين من عمره إلى المذهب الشافعى -وكان ذلك مسموحًا به بين العلماء والمفكرين- فقد عمل نائبًا من نواب الحكم، أى قاضيًا عن قاضى القضاة الشافعى. ثم تولى الخطابة بجامع عمرو بالفسطاط ومدرسة السلطان حسن، ثم إمامًا لجامع الحاكم، ومدرسًا للحديث بالمدرسة المؤيدية. ثم عينه السلطان برقوق محتسبًا للقاهرة والوجه البحرى، وقد تنحى عن هذه الوظيفة مرتين على الرغم من خطورة شأنها. وفى سنة ٨١٠ هـ سافر إلى دمشق مع الناصر فرج بن برقوق ثم عاد معه، وحينئذ عرض عليه تولى قضائها فامتنع. وقد تردد على دمشق أكثر من مرة فتولى فيها نظر وقف القلانس والبيمارستان النورى. وعينه السلطان فرج بن برقوق نائبًا للحكم بدمشق، وخلال ذلك قام بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرفية والإقبالية. لكنه بعد عشر سنوات هجر دمشق وعاد إلى القاهرة ليعكف على الاشتغال بالتاريخ إلى أن توفاه الله.

وعن العصر الذى نشأ فيه المقريـزى يقـول الدكتـور "محمـد مصطفى زيادة" -أحـد محققـى المقريـزى: «دل البحـث المقـارن فـى عصـور التـاريخ -وهـو ميـدان بكـر لاستجلاء الأسـس العامـة فـى الحضـارة الإنسـانية- علـى أن القـرن التاسـع الهجـرى تقريبًـا، أهـم العصور التاريخية على الإطلاق، بسبب ما بدأ فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحداث الدول والجماعـات والأفـراد، بـالغرب والشرق سواء». ثم يقول: «وللمؤرخين فى مصر فـى ذلـك القـرن ظاهرة توجب الالتفـات، وهـى فـى الواقـع برهـان علـى بـدء العـالم الإسلامى، فى شىء من الإفاقة، لفهم كيانه. ولعل أكبر دليـل علـى وجـود تلـك الظـاهرة تـاريخ "ابـن خلـدون" المسـمى "كتـاب العـبر وديوان المبتدأ والخبر"، لاسيما الجزء الأول منه، وهو الجزء المعـروف باسم المقدمـة. إذ يـرى القـارئ بصفحاتـه الافتتاحيـة تعريفًـا أخـاذًا للتاريخ بأنـه: فـى ظـاهره لمـا يزيـد علـى أخبـار عـن الأيـام والـدول والسوابق من القرون الأولى ... وفى باطنـه نظـر وتحقيـق ... تعليـل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقـائع وأسبابها عميـق».

وبعـد أن يتحـدث عـن رحلـة ابـن خلـدون فـى البـلاد الإسـلامية بالأندلس والمغرب وتقلبه فى شتى الوظائف والتقائه بكافـة العلمـاء، ثم وصوله إلى مصـر سـنة ١٣٨٢م، وتوليـه منصـب قـاضى القضـاة

المالكية بمصر يقول: «أما منبع الأهمية فى هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون فهو أنها تدل على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين فى مصر والشام وغيرها من البلاد، بل تدل المراجع على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين حوله من المعجبين به والمتتلمذين على طريقته. وإذا لم يتسع البحث هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة، فإن فى أخبار تلاميذه، والتابعين له بإحسان وغير إحسان، برهان على أن قصة المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله. أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن على المقريزى».

ويقول السخاوى عن المقريزى: «وقد قرأت بخطه أن تصانيفه زاد على مائتى مجلد كبار، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس».

ويقسم الدكتور "جمال الدين الشيال" رحمه الله -أحد أساتذة التاريخ الإسلامى الكبار- مؤلفات المقريزى إلى قسمين: كتب موسوعية ضخمة وأخرى تخصصية صغيرة. عنى المقريزى فى القسم الأول بالتاريخ العام مثل كتابه "الخبر عن البشر"، وكتابه "الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الإسلامية"، وكتابه "إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع". هذا إلى جانب

كتاباته عن تاريخ مصر الإسلامية وتراجم المشاهير من أهلها، مثل كتابه "المقفى الكبير"، وكتابه "درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة". وفى تاريخ مصر السياسى كتب المقريزى ثلاثة كتب هامة هى: "عقد جواهر الإسقاط فى تاريخ مدينة الفسطاط" يغطى فيه تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى بداية العصر الفاطمى، وكتاب "اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا"، ويغطى فيه تاريخ العصر الفاطمى فى مصر، وكتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" ويغطى فيه تاريخ مصر من بداية الدولة الأيوبية حتى سنة ٨٤٥ هـ، وهو كتاب يقع فى أربعة أجزاء ضخمة، تم تحقيقه ونشره فى اثنى عشر مجلدًا، كل جزء فى ثلاثة أقسام وكل قسم فى مجلد قائم بذاته، ونشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر، قام بتحقيق الجزء الأول والثانى فى ستة مجلدات المرحوم الدكتور "محمد مصطفى زيادة"، وقام الدكتور "سعيد عبد الفتاح عاشور" بتحقيق الجزئين الثالث والرابع فى ستة مجلدات. وتكتمل هذه الكتب الثلاثة التى أفردها المقريزى لتاريخ مصر السياسى فى العصور الإسلامية بكتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" -الشهير بـ"خطط المقريزى"- الذى خصصه لتاريخ مصر العمرانى. وأما الكتب التخصصية الصغيرة، فقد عالج المقريزى فى كل منها -كما يذكر

الدكتور "سعيد عاشور"- مشكلة من مشاكل التاريخ أو جانبًا مهملاً من جوانبه أو طرفة من طرف المعرفة، مثل كتابه "النزاع والتخاصم فيما يين بنى أمية وبنى هاشم"، وكتابه "الإلمام بأخبار مَن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام"، وكتابه "الطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة"، وكتابه "الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك"، وكتابه "تراجم ملوك الغرب"، وكتابه "البيان والإعراب بمن نزل أرض مصر من الأعراب"، وكتابه "المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية"، وكتابه "نحل ابر النحل"، ثم كتابه الصغير الحجم الكبير الأهمية "إغاثة الأمة بكشف الغمة".

وفى واحدة من أهم الدراسات التى كتبت عن المقريزى يحدد الدكتور "سعيد عبد الفتاح عاشور" منهج المقريزى فى كتاباته التاريخية موضحًا جوانب هامة من أركانه، منها أمانته فى العرض والقدرة على التجرد من الأهواء وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير. ومنها التدقيق فيما يسمع قبل تدوينه، وحب الاستقصاء والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الأحداث. ومنها عدم الإسراف فى الاستطراد واستقامة منهجه. ومثل العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته، حيث لم يكن المقريزى يكتب للخاصة وحدهم وإنما كان يكتب للعامة أيضًا،

والدليل على ذلك قول المقريزى نفسه عن كتاب الخطط: «وإنى لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك، ولا ينبو عنه طباع العامى والصعلوك، ويجله العالم المنتهى، ويعجب به الطالب المبتدى، وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك: ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سحرًا، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرًا». ومنها كذلك -أى جوانب العظمة فى منهج المقريزى- عدم مداهنة الحكام، حيث لم يسمح المقريزى لنفسه أن يكون عبدًا للسلطان أو أسيرًا للوظيفة، الأمر الذى جعله حرًا فيما يكتبه فلم يتحرج من نقد الأوضاع القائمة وكشف النقاب عن أوجه الفساد فى جهاز الدولة.

ويضع الدكتور "سعيد عاشور" أيدينا على أهم ما يمتاز به منهج المقريزى فى كتابة التاريخ، وهو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية، حيث توفرت لدى المقريزى حاسة تاريخية مرهفة مكنته من ربط الأسباب بالنتائج وتفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية. ويقول: «عايش المقريزى مرحلة خطيرة فى تاريخ دولة سلاطين المماليك، وهى مرحلة الخلل فى أجهزة الدولة، دخلت فعلاً مرحلة الخريف من عمرها، فرأى بعينيه ولمس بحاسته التاريخية المرهفة عظمة النشاط

الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك من ناحية وبداية الانحراف فى أوضاع الدولة من ناحية أخرى، مما كلفه من النقد والمقارنة حتى وضع يديه على أسباب الداء وحاول أن يقترح العلاج».

ولو تتبعنا جهود المقريزى فى علاج التاريخ الاقتصادى لمصر فى عصر سلاطين المماليك لوجدناه يتحدث فى إسهاب عن موارد الثروة فى مصر، زراعية وصناعية وتجارية، فنراه يتحدث عن نهر النيل حديثًا ضافيًا ويذكر حتى الأمراض التى يسببها الفيضان، كذلك يتحدث عن نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشًا، وعن خراج مصر فى كافة العهود، والدورات الزراعية ومواسمها ومواقيتها وإجراءاتها الرسمية. وعن النظام الإقطاعى يذكر المقريزى حقيقة هامة تقول: «واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر –ولا فيما قبلها من دول أمراء مصر– لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه اليوم فى أجناد الدولة التركية».

والحديث فى هذا الجانب طويل يوفيه الدكتور "سعيد عاشور" حقه من البحث والدراسة كاشفًا عن حقائق غاية فى الخطورة أشار إليها المقريزى فى علاجه لتاريخ مصر الاقتصادى، بعضها يختص بالزراعة والصناعة وبعضها الآخر يختص بتجارة مصر الداخلية والخارجية.

ولقد توصل المقريزى إلى حقائق لايزال يقف العصر الحاضر على حقيقتها، وهى أن الجوع الذى يحل بالبلاد ليس جدبًا بقدر ما هو صناعة السياسة الفاسدة والنظم المنهارة. لقد أثبت المقريزى طوال تأريخه لعصور المجاعات التى حلت بمصر أن معظمها لم يكن بسبب جدب النيل إنما هو فساد فى الحكم. ومن هنا تجىء أهمية كتابه "**إغاثة الأمة بكشف الغمة**" الذى أرّخ فيه للمجاعات والأوبئة التى طحنت مصر فى أكثر من عصر، خاصة تلك التى استمرت بصفة متقطعة بين سنتى ٧٩٦، ٨٠٨ هـ، وما صحبها من انتشار الطاعون فى البلاد، والجدير بالذكر أن ابنة المقريزى الوحيدة ماتت ضمن ضحايا ذلك الطاعون الشهير حيث كان يموت فى اليوم الواحد عشرون ألفًا وثلاثون ألفًا.

وبقدر ما عكست كتابات المقريزى أوضاع المجتمع الاقتصادية وبحثتها وحللتها وانتقدتها، فإنها أيضًا قد عكست الجانب الاجتماعى بدقة شديدة. غير أننا نلمس ملاحظاته الاجتماعية متناثرة فى ثنايا كتاباته بوجه عام. ويضع المقريزى تقسيمًا للمجتمع المصرى فى كتابه "إغاثة الأمة فى كشف الغمة" وذلك فى عصر سلاطين المماليك، حيث قسم المجتمع المصرى فى الجملة إلى سبعة أقسام: أهل الدولة –وهم المماليك، وأهل اليسار –وهم التجار

وأولو النعمة من ذوى الرفاهية، والباعة ومتوسطو الحال من التجـار، ويلحق بهم أصحاب المعايش -وهـم السـوقة، وأهـل الفلـح -وهـم الزراعات والحرث وسـكان القـرى والريـف، والفقـراء -وهـم جـل الفقهاء وطلاب العلـم والكثـير مـن أجنـاد الحلقـة وأربـاب الصنـائع والأجراء وأصحـاب المهـن. وأخـيرًا ذوو الحاجـة والمسـكنة- وهـم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهـم.

ويهتم بوصف العلاقات بين كل طبقة مـن هـذه الطبقـات، ثم بين هذه الطبقات وبعضها، ويصف حياة ونشأة المماليك وعلاقـة المملوك بسيده منذ شرائه إلى تدرجه فى مناصب الدولة.

وهـو يصـف علاقـات السـلاطين بالتجـار وكيـف كـانوا يتمادون فى فـرض الرسوم عليهـم ومصـادرتهم، فيقـول فـى كتابـه "السنون": «إن بعض التجار دعوا على أنفسهـم أن يغرقهم الله حتـى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم».

وفى كتابه "إغاثة الأمة" يقول إن السلطان فى بعـض الحـالات كـان يحتكر صنفًا ويختزنه ليـبيعه للتجار بأثمان باهظـة يفرضهـا عليهـم ممـا يسبب لهم خسارة بالغة، حتى اشتد الأمر على التجار لرمى البضـائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم، وكثرت المصادرات فـى الـولاة وأربـاب الأموال.

وعن أقباط مصر يقول المقريزى إنهم عاشوا فى طمأنينة حتى أن أديرتهم بالوجه القبلى بلغ عددها ثمانية وخمسين ديرًا، يحمل النصارى إلى رهبانها النذور والقرابين. وكان للأقباط فى مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية، كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية فى محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض.

ويصف الفلاحين بأنهم عاشوا فى حالة من المغارم معروفة، فوقعوا بين شقى الرحى بين استغلال الحكام وبطش الرهبان. كذلك يصف الحياة الاجتماعية فى القاهرة والمدن الكبرى بتداءً من وصف المساكن ونظمها إلى نوعية الحياة وأنماطها.

ويصف أهل مصر عمومًا بالبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر، وخُصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورًا والمثل بهم مضروبًا. ثم ربط بين مرحهم وشعورهم باللامبالاة، مستشهدًا بعبارة شهيرة لأستاذه "ابن خلدون" قائلاً: «قال لى شيخنا الأستاذ زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب».

ويبدو أن التريقة على الحكام والسخرية منهم جبلة قديمة فى الشعب المصرى، إذ يقول المقريزى إن أحدًا من الحكام لم يسلم من نكات المصريين اللاذعة، فأطلق العوام على أمراء المماليك ألقابًا

وتسميات تهكمية قارصة، ومن هؤلاء الأمير عـز الدين إيفـان وقـد أطلقوا عليه لقب "سم الموت"، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى وقد أطلقوا عليه لقب "الدم الأسـود"، ونـاصر الدين متـولى حسبة مصر وقد أطلقوا عليه "فار السقوف".

ويصـف المقريزى فَرحًـا مـن أفـراح القصـور هـو احتفـال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢هـ بزواج ابنه الأمير أنوك، حيث أمر السلطان بإحضار جميع مـن بالقـاهرة ومصـر مـن أربـاب الملهـى إلى الدور السلطانية، ووقع الشروع فى عمل الخوان، فأقـام المهـم سبعة أيام بلياليها ... فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهـم واحـدًا بعـد واحـد ومعهـم الشموع، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبَّل الأرض وتأخر. ومازال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم، فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زينتها ثلاثة آلاف وستون قنطارًا ... حتى إذا كان آخـر الليل نهض السلطان وعبر حيث مجتمع النساء، فقامت نسـاء الأمـراء بأسرهن، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى وهى تقـدم مـا أحضـرت من التحف الفاخرة والنقوط، حتى انقضت تقـادمهن جميعًـا، ورسـم السلطان يرقصهن عن آخرهن، فرقصـن أيضًـا واحـدة بعـد واحـدة، والمغانى تضرب بدفوفهن، وأنواع المال من الذهـب والفضـة وشـقق

الحرير يلقى على المغنيات، فحصل لهن ما يحل وضعه، ثم زفت العروس ... فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة، ذُبح فيه من الغنم والبقر والخيل والإوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفًا، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار.

ولو تتبعنا اللمحات الاجتماعية التى يوردها المقريزى فى كتاباته لما كفانا مجلدات أخرى. إن كتاباته تبدو كصندوق الدنيا يعرض ألوانًا من الحياة والغرائب والطرائف لا حصر لها، ولا ينفر لها سحر. إنه خزانة مصرية من العادات والتقاليد والفنون والعمارة والعسكرية ومعاهد العلم ... حقًا إنه لعمدة المؤرخين فى كل العصور.

الفصل الخامس

ابن إياس
صاحب الحساسية الحضارية
والحس الدرامي

من حسن حظ المكتبة العربية أن توفر لها كل هذا القدر من المعلومات التى تهم كل من يتصدى لكتابة تاريخ مصر والمنطقة العربية فى العصور الوسطى والإسلامية. ولولا ابن عبد الحكم والمقريزى وابن تغرى بردى وجلال الدين السيوطى وابن إياس لما تمكنا من معرفة هذه الحقبة الزمنية الحافلة.

وتبدو هذه السلسلة من المؤرخين كأن يدًا إلهية خفية ربطتها ببعضها فى هذا التنسيق البديع بحيث يتسلم كل منهم الدفة من الآخر ليواصل كتابة ما استجد من أحداث.

وقد التقينا فى مقالات سابقة بأساطين المدرسة التاريخية

المصرية الإسلامية، واليوم نلتقى بواحد يعتبره المؤرخون آخر حلقات هذه السلسلة من المؤرخين، وهو "**محمد بن إياس الحنفى**" الذى ولد فى الثالث من ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ/١٥٢٣م بعد موت المقريزى بحوالى سبع سنوات وقبل وفاة ابن تغرى بردى بحوالى اثنين وعشرين عامًا...

وأهم سمات المدرسة التى ينتمى إليها ابن إياس –ونعنى بها المدرسة التاريخية المصرية الإسلامية– هى سيادة نزعة الوطنية الخالصة، والتصدى لكتابة التاريخ من منظور مصرى خالص، يعتمد على التكريس لمصر وإثبات تفردها جغرافيًا وقدرتها على صنع التاريخ والحضارة منذ أقدم العصور.

وعلى الرغم من أن ابن إياس ينحدر من أصل شركسى –المماليك البرجية– إلا أنه قد وُلد بمصر وأحبها، وسرت فى شرايينه دماء نهرها، وأكسبته شمسها بشرة مصرية، وكما قال أستاذه 'جلال الدين السيوطى" إن مصر قادرة على تمصير الوافدين عليها، فإن ابن إياس قد استوعب هذه الحقيقة مثلما استوعب عن أستاذه روحه الوطنية المصرية العالية، التى كانت هى الدافع الحقيقى وراء اهتمامه بكتابة تاريخها، وكانت أيضًا هى الدافع الحقيقى وراء الاجتهاد لمعرفة الكثير عن تاريخ مصر القديم، والنظر فى مخلفاتها

الأثرية والحضارية ونقوشها الخالدة على الصخور وجدران المعابد صحيح أن الحقائق التى توصل إليها كل منهما -السيوطى وتلميذه ابن إياس- كانت أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية، إلا أن ذلك لا يغض من قيمة جهدهما المبذول فى هذا الصدد، خاصة أن أدوات البحث العلمى لم تكن متوفرة آنذاك: و لم تكن رموز اللغة المصرية القديمة قد حُلّت بعد لينفذ منها المؤرخ إلى ما وراء هذه الآثار الباقية. ومهما يكن من أمر فيكفى ابن إياس فخرًا أنه -تيمنًا بأستاذه- لم يترك كلمة قيلت فى مصر إلا أوردها فى مؤلفه، سواء كانت من القرآن الكريم أو من أحاديث الرسول عليه السلام أو أحاديث صحابته أو الزوار الكبار أو ما ورد بشأنها فى التاريخ القديم المدون.

وإذا كان مؤرخو ذلك العصر قد كتبوا فى مسائل علمية وأدبية وفقهية كثيرة لكونهم علماء فى الأصل، فإن ابن إياس لم يكتب فى غير التاريخ، وتاريخ مصر بوجه خاص، وقد ترك كتبًا كثيرة ولكن لم يبق منها سوى عدد محدود جدًا، منها كتاب "نشق الأزهار فى عجائب الأمصار"، وهو كتاب فى الفلك وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها، تقول عنه الدكتورة "سيدة الكاشف" أستاذة تاريخ العصور الوسطى إن علماء أوربا فى القرن

التاسع عشر قد استفادوا منه، وطبع منه الأستاذ "لانجاس" جزءًا فى باريس سنة ١٨٠٧م. ومن كتب ابن إياس أيضًا كتاب بعنوان "عقود الجمان فى وقائع الأزمان" وهو مختصر لتاريخ مصر. كذلك له كتاب عن الرسل والأنبياء بعنوان "مرج الزهور فى وقائع الدهور". كما أن له كتابًا صغيرًا فى تاريخ العالم بعنوان "نزهة الأمم فى العجائب والحكم"...

لكن أشهر كتب ابن إياس على الإطلاق هو كتابه "**بدائع الزهور فى وقائع الدهور**" الذى يقع فى خمسة مجلدات كبيرة ... وهو الكتاب الذى يصفه المؤرخون بأنه الحلقة الأخيرة فى سلسلة تاريخ مصر فى العصور الوسطى التى بدأها المقريزى بكتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك"...

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه ابن إياس قد شهد وقائع الفتح العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وسجلها بدقة وإسهاب. فقد كان شاهد عيان لما وقع فى فترة تمتد من ٨٧٢ هـ/١٤٦٨م إلى سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، وهى فترة حاسمة جدًا فى تاريخ المماليك حيث كان فيها فصل الخطاب نهائيًا واندحار دولة المماليك أمام زحف العثمانيين.

وكان ابن إياس من طبقة اجتماعية معروفة فى ذلك الوقت

يسمونها "أولاد الناس" وهـم أبناء المماليك الذين يأتون -لسبب أو لآخر- خارج السلطة، فكان السلطان يقطعهم إقطاعيات تدر عليهم دخلاً يكفل لهم حياة كريمة منبسطة...

على هذا كان يعيش مؤرخنا ابن إياس فى رغد من العيش يكفل له الاطمئنان والنظر المتأنى فى أحداث التاريخ، ويتيح له وقتًا للقراءة والبحث والدرس. وقد حدث أثناء الانهيار الاقتصادى لدولة المماليك أن اضطر السلطان قنصوه الغورى إلى تقليص نفقات الدولة وتوسيع مواردها، فما كان إلا أن نظر فى إقطاعات العلماء والفقهاء وأولاد الناس، وعمل على تخفيضها إلى الحد الأدنى الذى يقيم الأولاد فحسب، وكان أن نزع إقطاعية ابن إياس نهائيًا، فبقى ابن إياس يعانى شظف العيش مدة عام أو أكثر، لكنه لم يستسلم، فظل يلاحق السلطان الغورى بالشكاوى والالتماسات، إلى أن تصدى لموكبه ذات يوم وسلمه قصيدة شعرية عصماء يطالبه فيها برد إقطاعيته، فتأثر الغورى بالقصيدة ورد له إقطاعه، فعاد ابن إياس لحياته الطبيعية من جديد، واستأنف تفرغه لكتابة التاريخ والقليل فى الجغرافيا والفلك، إلى أن توفى فى شعبان من سنة ٩٠٨هـ.

وقد ساعد ابن إياس على أداء دوره التاريخى أنه كان قريب الصلة جدًا من الأمراء الشراكسة، كما كان أبوه "أحمد" من قبله

على صلة قوية بالأمراء. كذلك كان جده أميرًا، هو الأمير "إياس الفخرى الظاهرى"، حيث كان من مماليك "الظاهر برقوق"، ووصل إلى وظيفة دوادار ثانى فى دولة "الناصر فرج بن برقوق".

وبالإضافة إلى هذا الجسر الذى ربط بينه وبين الحكام فقد كان على علاقة طيبة بالكثيرين من رجال الدولة وكتاب السر وخواص السلطان. ثم أن أخاه "الجمالى يوسف" كان من كبار موظفى الدولة المملوكية عصرذاك، إذ كان يشغل وظيفة "زردكاش" فى القلعة، أى كان مشرفًا على صناعة السلاح وأمينًا عليه، وكان أخوه هذا يمده بالكثير من الوثائق والمعلومات التى يطلبها.

ويقول بعض دارسى تلك الفترة أن ابن إياس قد حاكى فى كتابته للتاريخ منهج كتاب "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم" لـ"ابن الجوزى"، الذى كان يدون أخباره على هيئة تقارير شهرية أو يومية، حيث تتضمن أهم الوقائع السياسية والمراسيم التى تصدرها الحكومة العباسية بتعيين أو عزل كبار موظفى الدولة، كذلك الأخبار التى تتصل بمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كالوفيات وحفلات الزواج والأعياد، وانتشار الأوبئة والمجاعات، والرخاء وبناء المدارس والمساجد والربط، ووصف الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف وفيضانات الأنهار وغير ذلك. ويضيف الدكتور "فاضل

الخالدى" أن كتاب "بدائع الزهور" لابن إياس قد جاء على هذا النحو.

ومنذ وقت مبكر اكتشف الغرب هذا الكتاب، واهتم به من المستشرقين الأجانب "بروكلمان، وفولرز، وسوبرنهايم، وباول كاله، ومارجليوث". ومن المصريين الذين اهتموا بهذا الكتاب وأعطوه حقه بل ونذروا له حياتهم الدكتور "محمد مصطفى" المدير الأسبق لمتحف الفن الإسلامى. أما المستشرق الفرنسى "جاستون فيت" الذى كان مديرًا لدار الآثار العربية "متحف الفن الإسلامى" فقد قام بنشر ترجمة فرنسية لجزء من كتاب "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" يشمل الفترة من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠٦هـ، وهو ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية بالقاهرة. وأما "مدام ديفونشاير" المهتمة بآثار عصر المماليك فقد ترجمت السنوات من سنة ٨٢٥ هـ إلى سنة ٨٤١ هـ من حكم السلطان برسباى، إلى اللغة الفرنسية ونشرتها فى مجلة المعهد العلمى الفرنسى. ومنذ عام ١٩٢٨م إلى عام ١٩٣٥م انشغل الدكتور "محمد مصطفى" بنشر الأجزاء الثالث والرابع والخامس بالاشتراك مع المستشرق الألمانى "باول كاله"، وهى الأجزاء التى شملت تاريخ مصر من سنة ٨٧٢ هـ/سنة١٤٦٨م إلى سنة ٩٢٨هـ/ سنة١٥٢٢م؛ أى بداية الفترة التى

انتهى عندها كتاب "النجوم الزاهرة فى ملوك القاهرة" لأبى المحاسن بن تغرى بردى. وقد اعتمد المحققان على المخطوط الذى بخط ابن إياس نفسه والمحفوظ بمكتبة جامع الفاتح باستانبول. ثم عاد الدكتور "محمد مصطفى" ونشر كتابًا بعنوان "صفحات لم تنشر من تاريخ ابن إياس" فى عام ١٩٥١م تضمن الفترة من شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م إلى شهر رجب سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٨م، معتمدًا على نفس المخطوط، بعد أن اتضح له أن "ابن تغرى بردى" أغفل بعض الشهور والحوادث التى استكملها ابن إياس عن تلك الفترة.

وربما كان ابن إياس متميزًا عن مؤرخى عصره بميزة عظيمة، هى قدرته على النفاذ إلى ما وراء الأحداث، فهو لم يقتصر على سرد حوادث التاريخ فحسب، بل كان يتوقف لينقد، ويتمعن، ويعلق، ويورد الأشعار والأخبار التى تؤيد وجهة نظره، لدرجة أنه قرأ سبعة وثلاثين مؤلفًا تاريخيًا قبل أن يكتب كتابه لكى "يستقيم له ما يريد" حسب تعبيره.

وإذا كانت عادة المؤرخين العرب القدامى هى كتابة الحوليات -أى أحداث عام بعام- فإن ابن إياس كتب أحداثه شهرًا بشهر بالنسبة للعصور السابقة على عصره، ويومًا بيوم فى تسجيله للفترة التى عاصرها.

وكان ابن إياس عاطفيًا شديد السخونة حين يكتب عن مصر وعن أحوال شعبها وعن ظلم المماليك السلاطين واستبدادهم، الأمر الذى يؤكد أنه كان يقف فى صف مصر أولاً -كبلده وكموطن- وفى صف عامة الشعب من جهة أخرى. وحينما وقعت مصر تحت الاحتلال العثمانى، لم يمنع نفسه -كمؤرخ مفروض أنه عقلانى- من الجيشان بحب مصر، فكتب مرثية شعرية نضحت بحبه لمصر وذهاب نفسه حسرات على هزيمتها.

ولعل كتاب "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" من الكتب التاريخية القليلة التى جرى اختصارها لتعم فائدتها. وكانت مكتبة أبى تحتفظ بنسخة من هذا الاختصار كانت أشبه بالقصص والأساطير والمدائح التى تباع بقرش. وقد كُتبت النسخة المختصرة بالعامية المصرية، مما أساء لابن إياس إساءة بالغة، وجاء مطعنًا فى أسلوبه، حيث ساد اعتقاد لدى كثير من المثقفين أن ابن إياس ضعيف الأسلوب ركيك العبارة. أما المخطوط الأصلى لابن إياس فلغته عالية وإن حفلت ببعض التراكيب والألفاظ العجيبة.

وفى كتابه "محاضرات حول المؤرخين العرب"، يقول "مارجيليوت": «إن أسلوبه -يعنى "ابن إياس"- فى الكتابة

والتأليف، ونمطه فى التفكير، ينم كل منهما عن فردية واستقلال فى الرأى قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين».

وقد كان ابن إياس بارعًا -بقدر أمانته- فى تسجيله لمظاهر التدهور فى سلطنة المماليك فى الخمسين سنة الأخيرة من عمرها. ويقول الدكتور "سعيد عبد الفتاح عاشور" فى دراسة له عن التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك فى ضوء كتابات ابن إياس : «إن المتعمق فى دراسة ما كتبه ابن إياس يجده يضع يده -بطريق مباشر أو غير مباشر- على مظاهر التدهور العام الذى تعرضت له دولة المماليك فى الخمسين سنة الأخيرة من عمرها، وعلاقة هذا التدهور بالعامل الاقتصادى». ويتتبع الباحث رصد ابن إياس لعوامل التدهور بدقة علمية ونظرة نافذة.

ومن أسباب التدهور التى يرصدها ابن إياس نظام المماليك الجلبان، فقد عرف المماليك نظامًا استقر على تقاليد أهمها ولاء المملوك لأستاذه وطاعته طاعة عمياء والرضاء بما يقدمه له من عطاء وهبات دون أى اعتراض، ذلك أن المملوك كان يُشترى صغيرًا جدًا، أو يُهدى إلى السلطان حيث يتولى السلطان تعليمه وتربيته وتنشئته على الولاء والطاعة والتفانى فى الخدمة، فكان المملوك حين يكبر لا يجد له أبًا أو أمًا أو ملاذًا سوى أستاذه، فكان من الطبيعى أن

يخفق له ويمتثل لأوامره دون مناقشة. وهناك بعض الممانيك كانوا يبلغون شأوًا كبيرًا، ليس فى إدارة شئون البلاد فحسب بل فى العلم والثقافة، وكان حبهم لأستاذهم لا ينفصل عن حبهم لهذه الأرض التى يعيشون فوقها، ومن ثم فهم يستعدون للدفاع عنها بكل قوة وشجاعة.

ولكن الأزمات الاقتصادية حين بدأت تحيط أعناق السلاطين المماليك نتيجة لعوامل داخلية وخارجية، منها بذخهم الشديد وإسرافهم على المتع والملذات بسفه، ومنها ضعف الموارد الخارجية نتيجة لاكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وانصراف التجارة الخارجية عن الموانئ المصرية شيئًا فشيئًا. نتيجة لكل هذا لجأ السلاطين المماليك إلى شراء مماليك كبار فى السن تجاوزوا سن البلوغ نظرًا لرخص سعرهم فى الأسواق، وهؤلاء كان يسمونهم المماليك الجلبان، تمييزًا لهم عن المماليك الأصلاء.

هؤلاء الجلبان كانوا من أكبر عوامل التدهور والفساد فى الدولة، ذلك أنهم تجاوزوا سن التعليم، فلم يكن من الممكن تعليمهم أو تنشئتهم على النحو الطبيعى، ومن ثم فقد كان ولاؤهم للسلطان ضعيفًا جدًا، ولم يكن يسكن فى قلوبهم وطن. كانوا باختصار مجرد مرتزقة، يكونون رجال السلطان فى مقابل أن يطعمهم ويأويهم

وينفق عليهم ببذخ، أى أنهم بلا أى مبدأ علـى الإطـلاق.ولهذا فما كادت يد السلطان تقصر عن الإغداق عليهم حسـبما يهـوون حتـى تمردوا عليه وعاثوا فى البلاد فسادًا، يعتـدون علـى الأهـالى وينهبـون أموالهم وممتلكاتهم، بل صاروا، كما يقول ابن إياس فى حوادث سنة ٨٩١ هـ: «يقفـون للأمـراء بسلم المدرج ويقولـون لهـم: قولـوا للسلطان ينفق علينا وإلا يقع منا فتنة كبيرة، وصاروا يغلظون عليهـم فى القول». وفى حوادث سنة ٩٠٤هـ يقـول ابـن إيـاس: «رجمـوا الأمراء من الطبـاق بالحجـارة وكبـوا عليهـم المـاء المتنجـس بـالأقذار وخطفوا عمائم الفقهاء». وقد ضعف السلطان أمامهم ضعفًا شديدًا وعجز عن إخماد ثورتهم، فلم يجد سـوى المصحـف العثمـانى يقدمـه للعسكر والأمراء ليحلفوا عليه بأن يظلوا موالين له، وكـانوا يحلفـون بالفعل ولكنهم سرعان ما يحنثون، ليس فقط لأنهم لا يقدرون معنـى الحلف على المصحف، وإنما لأنهـم كـانوا يطلبـون مـن السـلطان أن يحلف لهم هو الآخر على ألا يغدر بهم.

ومثل هـؤلاء الجلبـان طبعًـا لا ينتظـر منهـم الدفـاع عـن أى أرض أو وطن أو عقيدة، لأن هذه المسائل كلها لا تعنى فـى نظرهـم أى شىء. ولذلك فحينما اضطر السـلطان سـنة ٩٢١هـ إلى تجهـيز "تجريدة" لصد الهجوم العثمانى على البلاد «نزلوا من القلعة وأطلقـوا

فى الناس النار، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار، وهجموا عليهم فى الحارات والبيوت، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الأسواق وأخذوهم من تحتهم». ثم يضيف ابن إياس: «وكان من الطبيعى أن يترك ذلك أثره فى الحالة الاقتصادية، إذ لم تلبث أن أغلقت الطواحين قاطبة، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس، وضج العوام، وكثر الدعاء على السلطان، وغُلقت أسواق القماش من المماليك، واختفى الصنايعية والخياطون، واضطربت أحوال القاهرة، واختفى جماعة من التجار خوفًا من المماليك». وقد تعرضت ممتلكات السلطان نفسه لسطوة الجلبان، وكان العجز أمامهم قد بات حقيقة دامغة، حتى أن السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٩٥ هـ، قال لهم: «أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى إلى مكة». وفى سنة ٩١٧هـ قال لهم السلطان الغورى: «أنا أخلع نفسى من السلطنة وولوا من تختارونه» ومع ذلك استمر سلاطين المماليك على بذخهم وولعهم باقتناء المماليك الجلبان.

وإلى جانب سوء الأحوال الاقتصادية التى يرصدها ابن إياس، هناك سوء الأحوال الطبيعية التى يرصدها أيضًا، مثل انتشار الطاعون فى مصر مرات عديدة، سنة ٨٧٣ هـ، وسنة ٨٨٨ هـ، وسنة ٨٩٧ هـ، وسنة ٩٠٣هـ، وسنة ٩٠٩هـ، وسنة ٩١٢هـ،

وسنة ٩١٩هـ، حيث كان يموت الناس بالمئات بل بالآلاف كل يوم. ويعزو ابن إياس هذه الطواعين إلى الفساد الذى انتشر فى البلاد، حيث كثر الزنا واللواط وشرب الخمر وجور المماليك فى حق الناس، هذا فضلاً عن انخفاض ماء النيل وتعرض البلاد للجفاف وانعدام المحاصيل. على أن الفلاحين لم يكفهم الوباء والجفاف بل تعرضوا لهجمات العربان المتوالية، فقد بات العربان ينافسون الجلبان فى الإغارة على الآمنين ونهب محاصيلهم ومواشيهم ونسائهم وقتل أطفالهم، وتزايد خطر العربان إلى حد فاق كل تصور، ففى حوادث سنة ٩١٨هـ، يقول ابن إياس: «وتحالفت سبع طوائف من العربان بالبحيرة أن يكونوا كلمة واحدة على العصيان ... وقد آل أمر تلك الجهات إلى الخراب». وتعددت حوادثهم فى الشرقية والصعيد حتى دخلوا العاصمة نفسها، إذ «هجموا على القاهرة حتى وصلوا إلى رأس خط الحسينية، ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس، واستمر الحال على ذلك من بعد العصر إلى بعد المغرب، فرجعوا حيث جاءوا».

ويرصد ابن إياس هجمات التركمان والفرنج على حدود البلاد وموانيها، والمحاولات المستميتة التى بذلها السلاطين لرد عدوانهم، إلا أنها كانت كلها محاولات فاشلة لأن البلاد كانت قد

انهارت من الداخل تمامًا. ويبدو أن سلاطين المماليك قد استغلوا هذه الظروف لتعويض خزائنهم ما افتقدته من أموال؛ ففرضوا الضرائب المجحفة، بل ونزعوا ملكيات الناس وصادرو الأثرياء، وسحبوا إقطاعات الفقهاء والعلماء. ثم أن السلاطين كانوا يحتكرون تجارة الأصناف الرائجة كالقمح مثلاً حيث يخزنونه وقت الحصاد ليبيعونه بعد ذلك بأسعار باهظة.

وهكذا يكون ابن إياس قد تتبع قيام الدولة المملوكية، ثم انهيارها وسقوطها، بعين مؤرخ واسع الأفق، لا يدخر وسعًا فى تسجيل حقيقة عارية، دون أن ينافق سلطانًا أو يجامل حاكمًا...

ومن بين المميزات التى يتمتع بها ابن إياس ميوله الفنية الدرامية على وجه خاص، حتى يبدو كأنه يكتب رواية تاريخية حافلة، يؤرخ بها للعصر تأريخًا كاملاً، لا يسجل الأحداث فحسب، ولا يعلق عليها فقط، بل يدون التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، وهدفه الباطنى أن من يقرأ كتابه من الأجيال المقبلة لابد أن يقف على طبيعة الحياة وأسلوبها وأنماطها. لقد حرص على تصوير المظالم بما يقرب من المشاهد الدرامية. وقد خلا أسلوبه من الطابع الإنشائى، وهو يكتب عن الحياة التفصيلية للدولة، ولقصور الأمراء، ووصف الهيكل النظامى، والوظائف، والرتب والألقاب، كذلك نظام الحياة داخل

القصور، والعلاقات التى تقوم بين الحاشية من موظفين وفراشين، كما وصف الملابس والأزياء عند كل الطوائف. ويقول الدكتور "عبد المنعم ماجد" أن كتب ابن إياس تشى بأن لديه حساسية حضارية، بدليل أسمائها غير العادية. ويفسر عنوان كتابه "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" بأن ابن إياس ربما يكون قصده من هذا العنوان تشبيه الحياة الإنسانية بالزهور التى تنمو ثم تذبل، فهذا شأن الحضارة أيضًا، بمجيئها وتقدمها وتدهورها وذهابها. ومن ناحية أخرى كان لاهتمام ابن إياس بالتعبيرات الحضارية أن أصبح أسلوبه مبسطًا للغاية، فكل كلمة لها مدلولها، وذلك على عكس مؤرخين كثيرين فى عصره كانوا يميلون إلى الأسلوب الإنشائى. ومن المؤكد أن ابن إياس كان على علم تام بالمصطلحات الحضارية فى أيام المماليك حتى ملأ كتابه "بدائع الزهور" بها، وهى مصطلحات عربية وفارسية وتركية، تشتمل على نظام تنشئة المماليك فى الطباق وغيرها، ونظم دولتهم، ورسوم قصرهم، فضلاً عن تصوير للحياة المصرية فى عهدهم، لا نجدها إلا عنده.

وبهذه المناسبة فإننا نود لو يستفيد مخرجو السينما والتليفزيون والمسرح عندنا من هذا الكتاب الموسوعى، ليس فقط فى إستلهام تاريخه، بل فى ضبط نوع الملابس والأزياء التى كثيرًا ما

يفتعلونها فى أفلامهم وتمثيلياتهم فتجىء بعيدة عن الحقيقة، كذلك فى ضبط ديكورات أنواع القصور السلطانية، ونظام الحياة فيها، حين يقدمون أعمالاً تاريخية تنتمى إلى تلك العصور.

الفصل السادس

الجبــرتي

المــؤرخ الذي وقع عليه عبء كتابة التاريخ

انتهت المدرسة التاريخيــة المصرية بـابن إيـاس، الـذى اعتبره المؤرخون آخر أعلام هذه المدرسة التى عُنيت بتاريخ مصر الإسـلامية منذ بداية الفتح العربى حتى مجىء الدولـة العثمانيـة وسيطرتها علـى البلاد.

ونعنى بالمدرسة المصرية -كما سبق وشرحنا- تلك الكوكبة العظيمـة مـن المؤرخين الذيـن نظروا للتـاريخ مـن منظـور مصـرى خالص، وأرخوا لمصر من زاوية حبهـم وتقديسـهم لهـذا البنـد الـذى سقاهم حبه، والولاء له، فكان المؤلف منهم يطنب فى وصف محاسن

مصر وذكر أفضالها وموقعها الجغرافى وجوها وخير أرضها الخصيبة ونيلها المعطاء، والإلمام بدورها الحضارى والثقافى على مدى التاريخ.

وكانت المدرسة التاريخية المصرية التى وصلت إلى ذروة إزدهارها فى القرن التاسع الهجرى -الخامس عشر الميلادى- قد اضمحلت تمامًا، كذلك انحسر المد العلمى وفتر الاهتمام بالثقافة بوجه عام. ذلك أن هذه أمور لم تكن تعنى الدولة العثمانية فى شىء، فهم أقارب للمغول الذين سبق أن دمروا بغداد عاصمة الخلافة وأغرقوا كتبها فى النهر، ولولا الكتب الموسوعية التى ظهرت فى مصر بعد ذلك بقليل،وجمعت بين صفحاتها ملخصات وافية لهذه الأمهات من الكتب النادرة، لولا ذلك لفقدت الثقافة العربية أخطر أسس تراثها العريق.

وقد استطاع السلاطين المماليك تعويض البلاد فى الجانب الثقافى، وبفضل تشجيعهم للعلم والعلماء -كاتجاه يعوضون به شعورهم بعدم أحقيتهم فى المُلك باعتبارهم فى الأصل عبيد- قامت تلك النهضة العلمية والثقافية التى كان التاريخ أحد روافدها الهامة. إلا أن المحتل العثمانى ما كاد يمسك دفة أمور البلاد حتى انخرط فى صراع دموى رهيب مع المماليك يريد القضاء عليهم نهائيًا كى تخلو له ساحة البلاد، ويبدو أن هذا -بالإضافة إلى الطبيعة الفظة

للعثمانيين- قد صرفهم تمامًا عن النظر إلى الحركة العلمية التي كانت في أوج نشاطها إبان قدومهم.

وهكذا ظلت البلاد على مدى ثلاثة قرون تقريبًا تعاني من قحط علمي وجفاف ثقافي.

صحيح أنه كان هناك بعض النشاط، ولكنه نشاط فردي قليل لا يسمن ولا يغني من جوع. تباعدت المسافات بين العلماء وتلاميذهم، وأنقطعت الصلات بين الأجيال العلمية وبعضها لدرجة أن بعض الأمهات العلمية الكبرى المشهورة بيننا اليوم والتي ندعوها بالموسوعات التاريخية والعلمية كانت شبه مجهولة لأبناء العصر العثماني وما تلاه.

ضعف علم التاريخ وأنحط شأنه بين الناس، حتى لقد ساد في ذلك الزمن اعتقاد بأن التاريخ من شغل البطالين، الدجالين، وأنه -التاريخ- أساطير الأولين، وأن كل من يعني به مذموم من قومه. ولا يغيب عن بالنا طبعًا أن ضعف التاريخ ناتج عن ضعف الحركة العلمية ككل، وإذ تضعف الحركة العلمية والثقافية في مجتمع ما في زمن ما فإن نبض كل شيء يضعف.

وصحيح أن العصور العثمانية شهدت بعض نشاطات محدودة في كتابة التاريخ، ولكن المؤكد أنه من أسباب تدهور الكتابة

التاريخية فى ذلك الوقت أن الكتب التاريخية الهامة تسربت كلها من البلاد، فيما عدا «بعض أجزاء مدشتة بقيت فى خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدى الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونُقلت إلى بلاد المغرب والسودن، ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم».

وليس بغريب إذن أن تكون كل مخطوطاتنا النادرة موجودة فى مكتبات استانبول والاسكوريال والمتاحف العالمية.

لكل هذا كان ظهور المؤرخ المصرى الكبير "**عبد الرحمن الجبرتى**" بعد ثلاثة قرون من الركود والانحطاط التاريخى بمثابة عودة الروح للكتابة التاريخية من جديد، واستئنافًا لدور مصر العلمى والحضارى فى العالم. ومن هنا فقد أحتفى العالم كله بالجبرتى وبادر المستشرقون بنقله إلى لغاتهم، ليس فقط باعتباره ظاهرة خطيرة بل لكونه مصدرًا تاريخيًا لا سبيل إلى الشك فى صدقه وأمانته، يغطى بكتاباته التاريخية فترة من أهم الفترات التاريخية الحديثة، حيث سجل تاريخ مصر من أوائل القرن السابع عشر الميلادى حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادى.

ولقد كان من المنطقى أن يظهر مؤرخ مصرى موسوعى من نفس الفصيلة الممتازة التى عرفتها مصر حتى أواخر القرن السادس

عشر الميلادى، مؤرخ كبير طويل النفس يكتب حولياته الخاصة، لديه -ويا لهول ما لديه- ليقوله ويسجله للأجيال القادمة: أحداث متلاحقة مذهلة عاشها وعاناها حتى لزم أن يؤرخها ليس فقط يومًا بيوم بل ساعة بساعة.

حقًا لقد كان عصرًا حافلاً وكان لابد له أن يخلق مؤرخه الخاص. فهناك الصراع العثمانى مع البيوت المملوكية التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت صاحبة البلاد. وكانت الخصومة قد ارتفع أوارها والبلاد تتحمل نتيجة ذلك وتدفع ثمنه من أمنها واستقرارها. ثم ما كادت الأمور تستتب بالدولة العثمانية وتتثبت دعائم استقرارها حتى دخلت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، ثم دخل الإنجليز بحملات كان لها دويها. ثم خرجت الحملة الفرنسية بعد ثورات هائلة من الشعب المصرى الأبى، ثم تولى محمد على حكم مصر.

فى ظل عصر كهذا كان لابد أن ينبع مؤرخ كالجبرتى يتفوق على من سبقوه فى القرون الثلاثة الخاوية. ويقرر "أرنولد توينبى" إن الجبرتى قد بلغ مرحلة الشباب فى الطور الأخير من عهد الاستقرار -يعنى الاستقرار العثمانى- وعاش ليعاين التدمير الدرامى الذى فجأ نظامًا مستقرًا. كان ذلك وقتما استولى نابليون عام ١٧٩٨م على مصر بغتة، بغزوها واحتلالها. وإذا كان لاحتلال

الفرنسى لمصر حدثًا عابرًا، فلقد أمتد بالجبرتى العمر ليشاهد محمد على يتعهد ويتولى تنفيذ ثورة اقتصادية واجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها. وإذا كان الجبرتى -يقول "توينبى"- قد مات قبل الأوان، لكنه شهد المرحلة الأولى من مراحل الثورة لاقتصادية والاجتماعية فى مصر، تلك الثورة التى كانت قد بدأت فى بريطانيا قبل نهاية القرن الثامن عشر. و لم يقتصر الحال بالجبرتى على أن يعيش فى خضم هذه التقلبات غير العادية، فقد مُنح إدراك مغزاها، وأُوتى أيضًا المقدرة العلمية على تسجيلها بإحساس صدق يتيح للقارئ راوية للأحداث يتفاعل مع تجربته عاطفيًا، مثلما يتجاوب معه فكريًا.

ويضيف "توينبى" قائلاً هذه العبرة الهامة عن الجبرتى: «الجبرتى مؤرخ وقع عليه عبء كتابة حقبة شاذة عن حياة الحضارة التى ترعرع فى ربوعها». ويقول الدكتور "محمد شفيق غربال" إن العصر الذى عاش فيه الجبرتى عصر أنتقال من حال إلى حال، هو عصر الثورة المصرية، الثورة الكبرى التى أنتقت بها مصر من طور من أطوار تاريخها الطويل المفعم بعبر الدهر إلى الطور الذى أمتد إلى الزمن الذى نعيش فيه.

ولد الجبرتى عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤م، ومات عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤-١٨٢٥م على وجه التقريب. ينتمى لأسرة كان معظم

أفرادها من أهل العلم والمعرفة، وقد وضع ترجمة لأبيه الشيخ حسن الجبرتى نفهم من خلالها أن أسرته كان لها أسهمًا كثيرة فى مجال العلم. ويرجع أسم الجبرتى إلى بلدة من إقليم زيلع بأرض الحبشة تدعى "جبرت"، إلا أن جده الأكبر قد رحل عن هذه البلدة إلى مصر فى القرن العاشر الهجرى -السادس عشر الميلادى. ويبدو أن لهذا الإقليم صلة بالعلم، إذ يحدثنا الدكتور "جمال زكريا قاسم" بأن بلاد زيلع بالحبشة قدمت كثيرًا من العلماء المسلمين مثل "فخر الدين بن عبد الله بن يوسف الزيلعى" المتوفى عام ١٣٤٢م، والمحدث "جمال الدين بن عبد الله بن يوسف الزيلعى" المتوفى عام ١٣٦١م. فضلاً عن جد الجبرتى. ويذكر الجبرتى فى ترجمته لأبيه الشيخ حسن الجبرتى أن جماعة من الإفرنج قد وفدوا على والده الشيخ وأخذوا عنه علم الهندسة.

ورغم أن فن التراجم كان لعبة الجبرتى الأولى، ورغم أنه قد ترجم لعديد من الأعلام وغير الأعلام، فإنه قد فاته أن يترجم لنفسه مثلما فعل رواد هذا الفن فى الثقافة العربية فى العصور الوسيطة. لكن الأستاذ "خليل شيبوب" يحدثنا فى كتاب له عن الجبرتى، وهو من الكتب الهامة جدًا الصادرة فى وقت مبكر عن هذا المؤرخ الكبير، أن الجبرتى التحق فى طفولته بأحد الكتاتيب التى

كانت منتشرة آنذاك فى حى الأزهر وفى جميع أنحاء مصر، فحفظ القرآن الكريم كله وهو بعد فى العاشرة من عمره. ثم ألتحق بمدرسة السنانية بالصنادقية، وألتحق برواق الشوام، ودرس المذهب الحنفى على الشيخ عبد الرحمن العريشى أحد أصدقاء أبيه. وفى بيت والده الشيخ الشهير ألتقى بكثيرين من العلماء فأتيح له أن يعرف عنهم الكثير من العلوم الرياضية والهندسية والفلكية. وقد ورث عبد الرحمن عن أبيه علمًا غزيرًا ومكتبة أغزر، كما ورث عنه أموالاً كثيرة وأوقافًا آلت إليه، فأتاح له ذلك الدخل المريح توفرًا على العلم والدراسة فى الأزهر، متفرغًا لا يشغله أمر العيش.

ولم يكن الجبرتى يدخر وسعًا فى تنوير عقله. ورغم أنه كان قد أحب التصوف وأنتمى إلى بعض فرقه، فإنه كان -كرجل مستنير- ينفر من إفراطهم فى الفكر الأسطورى والضرب فى متاهة الغيبيات. وقد ظل يعمل على بناء عقله بواسطة التفكير العلمى المجرد، مستفيدًا فى ذلك بالنزعة الرياضية التى ورثها لا شك عن أبيه وعن أقرانه وجلسائه. ويقول الدكتور "أحمد عزت عبد الكريم": «كان عبد الرحمن الجبرتى ينتمى إلى هذه الهيئة العلمية المتماسكة -يقصد هيئة كبار العلماء- فيها نمى وترعرع، وبرز وأخذ مكان الصدارة. ذلك أنه لم يقتنع بالعلم التقليدى الذى كان شائعًا فى

ذلك الوقت والذى كان الأزهر موئله ومستقره، كالفقه والحديث وسائر علوم اللغة والدين، ولكنه أضاف إلى ذلك معرفة بطائفة من العلوم، كعلوم البيئة والفلك والطب والحساب، مما يسمونه العلوم الوضعية، أو نسميه نحن العلوم التطبيقية أو الطبيعية. ويكفى أنه ابن ذلك العالم الذى رد لمصر -فى أيامه- سمعتها العلمية حين جاء إلى مصر أحد الولاة، وكان له شغف ببعض هذه العلوم، فسأل عن أصحابها من علماء الأزهر، فقالوا إن هذه العلوم قد بطل تدريسها فى الأزهر، فقال: المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمهيدى خير من أن تراه. فدلوه على الشيخ حسن الجبرتى -أبرز العلماء المهتمين بهذه العلوم فى ذلك الوقت- وكان يمارسها علمًا وعملاً فى بيته، ويدرسها لطائفة من تلاميذه، فوجد الباشا عنده بغيته».

وهذه الفقرة تدلنا إلى أى حد وصل التعليم فى الأزهر من التدهور، حتى أن طائفة من العلوم الهامة قد بطل تدريسها فيه، وإلى أى حد يمكن لبعض الرجال الأفراد -حين يكونون أفذاذًا- أن ينقذوا سمعة أمة بكاملها. وإذا كان الشيخ حسن والد مؤرخنا قد أنقذ سمعة البلاد العلمية بحادث طريف كهذا، فإن أبنه عبد الرحمن قد أنقذ

سمعة البلاد التاريخية بعد أن كان التاريخ قد بطل استخدامه طوال ثلاثة قرون عجفاء.

ومن الغريب أن عبد الرحمن الجبرتى لم يكن يحلم فى يوم من الأيام أن يكون مؤرخًا، وأنه -بتعبير "توينبى"- قد وقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة خضارة التى ترعرع فى ربوعها.

على أن التاريخ الحى بأحداثه المتلاحقة، الذى هزه ودفعه إلى تحمل عبء كتابته، قد سبقته مقدمات هيأت الشيخ عبد الرحمن الجبرتى لهذا الدور الخطير. تتمثل هذه المقدمات فى معرفته للشيخ "محمد مرتضى الزبيدى" العالم الشهير صاحب كتاب "تاج العروس" وكان من أصدقاء والده الشيخ حسن. وكان الشيخ الزبيدى مشغولاً فى ذلك الوقت بمشروع تاريخى كبير هو الترجمة لأعلام المائة عام المنصرمة وقتذاك، وهذا عمل يقتضى كثيرًا من المعاونين والمحررين. وهؤلاء الأعلام ليسوا من مصر وحدها، بل من مصر والشام والحجاز وغير ذلك من عواصم المدن الإسلامية. ولما لم يكن للشيخ الزبيدى إقامة طويلة فى مصر نسك لجأ إلى الشيخ عبد الرحمن -وكان ذلك فى حوالى عام ١٣٤١ هـ / ١٧٨٦م- أن يعاونه فى الترجمة لأعلام مصر.

وكان هذا الطلب بمثابة نقطة البداية التى أنطلق منها الجبرتى إلى ساحة التاريخ يدون أحداثه ويصبح أهم أعلامه فى العصر الحديث. ومن الواضح أن الجبرتى اكتشف نفسه فى هذا العمل الذى كلفه به الشيخ الزبيدى، حتى أنه مارسه بمزاج وبروح الهواية المحببة إلى النفس، ومن المؤكد أيضًا أنه أدرك منذ ذلك الوقت الأبعاد الخطيرة لهذا العمل الذى يقوم به، وأنه كانت لديه خلفية ثقافية ضافية عن مفهوم التاريخ.

وهكذا راح الجبرتى يترجم للأعلام فيكتب سير حياتهم: مشايخ الأزهر، شيوخ الأروقة، أرباب الحلقات، أمراء الأوجاقات، السناجق، مشايخ البلد. وقد دفعه ولعه بالترجمة إلى حد أنه ترجم لخدم الأحذية فى المساجد وللمجدومين. وإن كشف هذا عن حب الجبرتى للتاريخ فإنه يكشف أيضًا عن ميوله الروائية، ولو كان أدب الرواية منتشرًا فى ذلك الوقت لكان الجبرتى روائيًا فذًا. غير أن حسه التاريخى كان أكثر تيقظًا، يتجلى ذلك فى بحثه الدءوب عن المعلومة الصحيحة، وتقليب هذه المعلومة على وجوهها: والنظر فيها، وابتداع مصادر جديدة للمعلومات التاريخية. ولم يكن أمامه فى ذلك الوقت من مصادر تاريخية يلجأ إليها أو يعتمد عليها، فكان يلجأ إلى صديقه الشيخ "إسماعيل الخشاب" -الذى كان من عدول

المحكمة الشرعية وكان يتردد على القرافات ليقرأ النقوش المدونة على جدرانها ومقابرها- للتحقق من تاريخ وفاة مثلاً، أو اكتشاف صلة قربى بناس على قيد الحياة. فإذا وجد فإنه سرعان ما يتصل بأقارب المتوفى أو أصدقائه أو معارفه، ويطلب الاطلاع على ما لديهم من أوراق أو معلومات أو حتى ذكريات. كذلك كان يتصل بكبار السن المعمرين، فيستوضحهم الأخبار ويستشف منهم روح الحقيقة.

على أن مرض الطاعون الذى أجتاح مصر عام ١٣٤٥هـ/ ١٧٩٠م -ضمن حملاته المتكررة على مصر طوال تلك العصور- أغتال أستاذه الزبيدى. فحزن الجبرتى عليه وفترت همته فكاد يتوقف عن البحث والتدوين، لولا أن رسالة وصلته من السيد "محمد خليل المزادى" مفتى دمشق ترجوه إرسال ما جمعه الزبيدى وما جمعه هو أيضًا من هذه التراجم.

المصيبة أن الأوراق التى سودها الجبرتى فى هذا الصدد كانت لدى الشيخ الزبيدى، وها هو ذا قد مات، فكيف يسترد الجبرتى أوراقه؟ لم يكن أمامه من مفر سوى أن يشترى تركة الشيخ الزبيدى من كتب وأوراق وأشياء أخرى، وبهذه الطريقة حصل على أوراقه. وبدأ يستأنف البحث فى حياة الأعلام ليوافى بها المزادى فى دمشق.

غير أن المزادى نفسه لا يلبث أن يموت بعد عام، فتشاءم الجبرتى وأهمل أوراقه إهمالاً تامًا.

وكادت صلة الجبرتى بكتابة التاريخ تنقطع تمامًا. حيث ظل عدة سنوات لا يجد حافزًا قويًا يدفعه لاستئناف هذا النوع من الكتابة. ولكن التاريخ الحى نفسه كان يدخر للجبرتى أحداثًا عظيمة تكون بمثابة الحافز الأقوى لأن يكون مؤرخًا، ليس فقط من خلال ترجمته للأعلام، بل من خلال التأريخ لأمة كاملة. ذلك أن الحملة الفرنسية ما لبثت أن جاءت إلى مصر غازية ومحتلة، فانبرى الجبرتى يسجل وقائع هذا الحدث العظيم يومًا بيوم، بمعاونة صديقه الشيخ حسن العطار، ذلك الأزهرى الشاعر الفنان.

حتى إذا ما خرجت الحملة الفرنسية عن مصر كان قد اكتمل لديه "الفرنسيس" الذى قدمه إلى الوزير "يوسف باشا"، وكان كتابًا دقيقًا حتى أنه جذب أهتمام السلطان سليم الثالث فأمر بترجمته إلى اللغة التركية عام ١٨٠٧م. وكان هذا النجاح الذى لقيه كتابه التاريخى الأول حافزًا قويًا دفعه إلى الشروع فى تأنيف كتابه الكبير الشهير "**عجائب الآثار فى التراجم والأخبار**" الذى عُرف فى كل أنحاء العالم باسم "تاريخ الجبرتى"، وقد ضمنه كتابه السابق "مظهر التقديس" بعد أن حذف مقدمته والأجزاء التى كتبها الشيخ

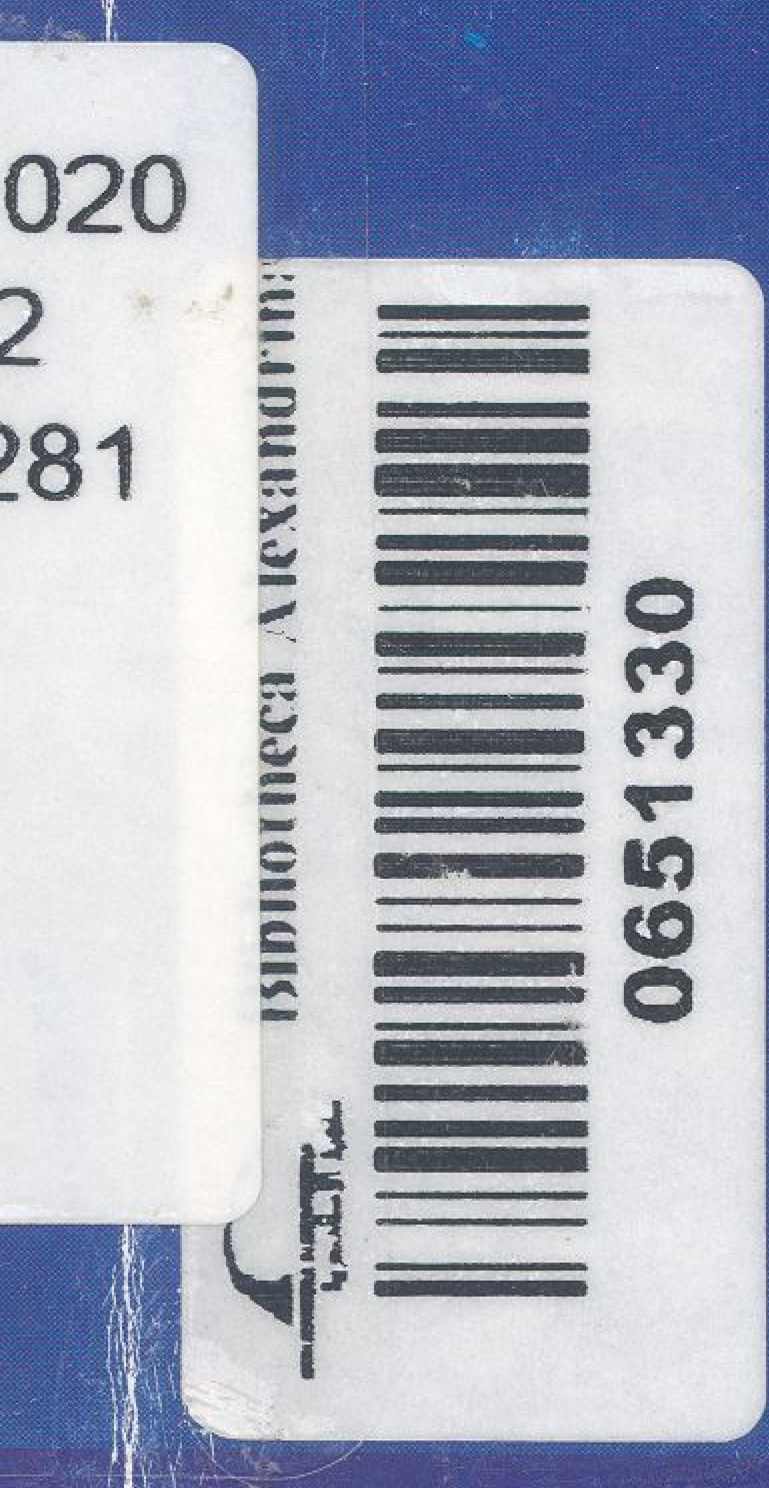
وإن كان قد حرص على إخفاء ذلك عندما كتب كتابه عن حكم الفرنسيين لمصر».

وعن موقف الجبرتى من محمد على يقول الدكتور "أحمد عزت عبد الكريم" : «رأى -يعنى الجبرتى- بعينيه أحوال البلاد تبتذل على ما لم يألفه أهل ذلك الزمان. وراح يقيس الأمور بمقياس الأخلاق وحدها دون أن يقدر كنه التغيير أو دواعيه وبواعثه. ومن هنا جاءت أحكامه علَى محمد علِى الذى بطش بكل من أعانوه علَى تسلم مقاليد الحكم فى البلاد، كما فعل بالسيد عمر مكرم الذى خشى محمد علِى إستعلاءه وتجمع الناس حوله، فنفاه إلى دمياط، وهو الرجل الذى كان أول وأقدر من أعانه على تقلد مهام الحكم فى البلاد ... الخ» ... «ومضى الجبرتى يأخذ على محمد على مصادرته أرزاق الناس، كما فعل مع نظار الأوقاف وملتزمى الأراضى، ثم إحتكاره لموارد البلاد، كما فعل فى جمع الغلال وبيعها -حتى الخضر- بالأسعار التى يحددها، وغير ذلك مما عده الجبرتى من المظالم، فوصفه بأنه كان يتطلع لما فى أيدى الناس».

وقد أخذ الكثيرون على الجبرتى موقفه من محمد على، ولكنهم أتفقوا جميعًا على أنه لم ينس المشاريع الإصلاحية الكبرى لمحمد على، وأنه صاحب أضخم وأهم موسوعة تاريخية مصرية فى التاريخ المصرى الحديث.

فهرست

مؤرخو مصر الإسلامية هم مجموعة من المؤرخين المصريين ممن نشأوا في ظل الثقافة الإسلامية التي ازدهرت في فترات تاريخية كثيرة فأثمرت وتفاعلت مع ماسبقها من حضارات مجاورة ، فقدمت للعالم نموذجا ثقافيا يحتذي . لكن نشأتهم علي أرض مصر أيقظت فيهم الحس التاريخي ، حيث التاريخ من حولهم مدون ومنقوش علي جدران المعابد والمقابر . وسواء كانوا قد التقوا بابن خلدون المغربي الذي لمع في أفق الثقافة العربية كمؤسس لعلمي التاريخ والاجتماع ، أو لم يلتقوا ، فإن إحساسهم بالتاريخ القائم في ربوعهم كان لابد أن ينضج في يوم من الايام ليصبح التاريخ عندهم - وان كان من وجهة نظر إسلامية - مرتبطا بمصر باعتبارها مركز الكون ومهد الحضارة الإنسانية الأولي، فجاءت كتاباتهم التاريخية تبدأ وتنتهي بمصر ، ولمع منهم جلال الدين السيوطي وابن عبد الحكم والمقريزي والقلقشندي وابن إياس والجبرتي وغيرهم ، وفي هذا الكتاب يقوم الروائي الكبير خيري شلبي بإلقاء الضوء عليهم وتعريف القراء بهم بأسلوبه الروائي السهل البديع، فهذا الكتاب إذن أشبه بفصول روائية شيقة سوف يجد القارئ فيها مايمتع ويفيد .



دار مطابع المستقبل بالإسكندرية
والفجالة ومكتبة المعارف بيروت